القسم الأول

كما جاء في العهد القديم

الفصل الأول

سوف يأتي أحمد لكل الأمم
(سفر حجي 7/2)

سقطت مملكة إسرائيل وعاصمتها شكيم (نابلس الحالية) بيد الآشوريين عام (721ق م)، ونفي سكانها من بقايا أسباط إسرائيل العشرة إلى بلاد الآشوريين، ثم بعد ذلك بأقل من قرن ونصف (586 ق م) سقطت مملكة يهوذا، وعاصمتها القدس بيد الكلدانيين بقيادة نبوخذ نصّر، ودُمر معبد سليمان تدميراً تاماً، وأعمل القتل في سلالة سبطي يهوذا وبنيامين اللذين كان يشكلان مملكة يهوذا، ونفي من سلم منهم إلى بلاد بابل حيث بقوا في المنفى حتى سيطر قورش ملك الفرس على بابل عام(538ق م)، وسمح لليهود بالعودة إلى فلسطين كما سمح لهم بإعادة بناء القدس والهيكل.

وعندما وضعت الأساسات لبناء المعبد الجديد ارتفعت صيحات الفرح بين اليهود، بينما استولى النحيب والبكاء المرير على كبار السن الذين سبق أن شاهدوا معبد سليمان قبل تدميره. وفي تلك المناسبة بعث الله النبي (حجي) ليعزي المجتمعين بهذه الرسالة المهمة:

(وسوف أزلزل كل الأمم، وسوف يأتي (حِمْده) لكل الأمم، وسوف أملأ هذا البيت بالمجد، كذلك قال رب الجموع، لي الفضة ولي الذهب هكذا قال رب الجموع، وإن مجد ذلك البيت الأخير يكون أعظم من مجد الأول، هكذا قال رب الجموع، وفي هذا المكان أعطى الـ(شالوم)، هكذا قال رب الجموع) (سفر حجي 9/7-9).

وقد ترجمت هذه الفقرة من النسخة الوحيدة من الكتاب المقدس التي كانت تحت تصرفي باللغة المحلية والتي أعارتني إياها ابنة عمي الآشورية، وبالمقارنة مع ذلك نلاحظ أن الترجمة للكتاب المقدس ترجمت الكلمتين العبريتين (حِمْدَه) و(شالوم) إلى (الأمنية) و(السلام) على التوالي.

لقد أعطى المعلقون اليهود والنصارى أهمية قصوى للوعد المزدوج الذي احتوته النبوءة المذكورة آنفاً، وكلاهما يفهمان من كلمة (حِمْدَه) نبوءة مسيحانية Messianic، فلو فسرت هذه النبوءة بالمعنى المجرّد لكلمتي (حِمْدَه) و(شالوم) على أنهما (الأمنية) و(السلام) لأصبحت النبوءة لا شيء سوى أمنيات مبهمة غير ذات مغزى، ولكن لو فهمنا معنى كلمة (حِمْدَه) أنها شخصية حقيقية ومن كلمة (شالوم) أنها ديانة منزلة وقوة فعالة، عندئذ لأصبحت هذه النبوءة صادقة ومتحققة في شخصية أحمد ودين الإسلام، ذلك لأن كلمتي (حِمْدَه) و(شالوم) تؤديان بدقة معنى كلمتي (أحمد) و(الإسلام).

ومن المفيد قبل إثبات تحقق هذه النبوءة في (أحمد) و(الإسلام) إيضاح أصول هاتين الكلمتين:

1- لنأخذ كلمة (حِمْدَه): يُقرأ النص بالعبرية الأصلية هكذا (في يافو حِمْدَه كُول هاجوييم) مما يعني حرفياً: (وسوف يأتي حِمْدَه لكل الأمم) والكلمة مأخوذة من اللغة العبرية القديمة أو الآرامية، وأصلها (حِمْدْ) وتُلفظ دون التسكين (حِمِد) مما يعني في العبرية (الأمنية الكبيرة) أو (المشتهى) أو ما يتوق إليه المرء، وفي اللغة العربية يأتي الفعل (حَمِدَ) من جذر الكلمة نفسها (ح م د) بمعنى الإطراء والمديح.

ومَن هنالك أكثر استحقاقاً للمديح من الشخص الذي يُتاق إليه ويُرغب فيه؟ ومهما تكن المعاني المشتقة من جذر الكلمة تبقَ الحقيقة الحاسمة التي لا جدال فيها هي أن كلمة (أحمد) هي الصيغة العربية لكلمة (حِمْده).

وفي قوله تعالى في سورة الصف في الآية السادسة: ﴿**وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِن بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ**﴾ وفي إنجيل يوحنا الذي كتب باليونانية ورد اسم (باراكليتوس Para cletos) وهو صيغة غير معروفة في الأدب الإغريقي، ولكن كلمة (بيريكليتوس Periqlytos) هي التي توافق وتطابق تماماً كلمة (أحمد) في معناها

ومغزاها، ولا بد أنها كانت الترجمة اليونانية الأصلية لكلمة (حِمْدَه) الآرامية كما لفظها عيسى المسيح.

2- أما أصل كلمة (شالوم) و(شلاما) بالعبرية، وفي العربية (سلام) و(إسلام) فلا حاجة لأن أثقل على القارئ بتفاصيل لغوية؛ لأن أي متخصص في اللغات السامية يعرف أن كلمتي (شالوم) و(شلام) مشتقتان من أصل واحد وكلاهما تؤديان معنى السلام أو الاستسلام.

ونستشهد بنبوءة أخرى من سفر (ملاخي) وهو الكتاب الأخير من العهد القديم: ***(سوف أرسل رسولي فيمهد الطريق أمامي، وفجأة سوف يأتي إلى هيكله السيد الذي تطلبونه، رسول العهد الذي تُسرون به، إنه سوف يأتي، هكذا قال رب الجموع) (سفر ملاخي3/1).***

ولنقارن بين هذا الوحي الغامض وبين قوله تعالى في الآية الأولى من سورة الإسراء: ﴿**سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَا الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ** ﴿١﴾﴾ مما يعني أن الشخص القادم فجأة إلى الهيكل حسب سفر حجي وسفر ملاخي هو محمد، وليس المسيح، وإليكم الأدلة على ذلك:

1- أن العلاقة والتشابه بين كلمتي (حِمْدَه) و(أحمد) وبين جذر الكلمة (حـ م د) التي اشتقّتا منها لا تترك أدنى شك بأن الفاعل في عبارة (وسوف يأتي حِمْدَه لكل الأمم) إنما هو (أحمد) أي

(محمد) كما أنه لا يوجد أدنى صلة في الأصل السامي بين كلمة (حِمْدْ) وبين أسماء عيسى وألقابه مثل (عيسى أو يسوع أو المسيح أو المخلّص) حتى في أي حرف من حروفها.

2- حتى لو قال بعضهم إنَّ الجذر العبري (حـ م د هـ) يقرأ (حِمْدَه) هو اسم اعتباري معناه: أمنية، أو مشتهى، أو مدح، فإن ذلك يؤيد ما نقول؛ لأن الصيغة العبرية في أصلها متطابقة تماماً مع الصيغة العربية، وأياً من المعاني تختار لكلمة (حـ م د هـ) فإن صلتها بـ(أحمد) قاطعة، ولا علاقة لها بـ (عيسى).

ولو حافظ القديس جيروم، ومترجمو النسخة السبعينية قبله، على الصيغة العبرية لكلمة (حـ م دهـ) بدلاً من استخدام الكلمة اللاتينية Cupiditas، أو الكلمة الإغريقية Euthymia، لكان من المحتمل أن يحتفظ بها أيضاً مترجمو الملك جيمس الأول الذين أنجزوا الترجمة المجازة (Authorizwd Version) ولاحتفظت بها أيضاً جمعية الإنجيل في الترجمات إلى اللغات الإسلامية.

3- لقد أعاد هيرودس الكبير ترميم وبناء معبد (زوروبابل) الذي قدر له أن يكون أعظم مجداً من هيكل سليمان؛ لأن (ملاخي) تنبأ بأنَّ الرسول العظيم أي: رسول العهد أي: (السيد) أي: سيد الرسل سيزوره فجأة، وهذا ما حصل فعلاً عندما زاره (محمد) في رحلة الليل المعجزة المذكورة في القرآن الكريم في سورة الإسراء.

ولقد زار (عيسى) أيضاً المعبد مرات عديدة وشرّفه بوجوده، ومع ذلك فإن الأناجيل التي سجلت زيارات ومواعظ المسيح في المعبد لم تذكر هداية شخص واحد بين مستمعيه؛ بل روت أن جميع زياراته كانت تنتهي بالجدل والنقاش المرير مع الكهنة والفريسيين.

ولو كانت نبوءة حجي (وفي هذا المكان أعطي الشالوم) تشير إلى السلام لوجب أن نذكر أن عيسى لم يجلب السلام إلى العالم، وقد صرح بهذا متعمداً (إنجيل متى 34/10..)، كما أنه تنبأ بالخراب الكامل للمعبد (متّى 24/ 2ومرقس2/13 ولوقا 6/21)، وقد تحقق ذلك بعد أربعين عاماً تقريباً على أيدي الرومان عندما تم تشتيت اليهود بصورة نهائية.

4- لقد أسري بمحمد ـ وهو صيغة أخرى لاسم (أحمد) ومن المصدر والجذر نفسيهما ـ من مكة إلى بيت المقدس حيث زار البقعة المقدسة عند بقايا المسجد كما نصّ القرآن الكريم، وهناك أدى الصلاة بحضور جميع الأنبياء، وقد بارك الله تعالى حول المسجد الأقصى وأطلع آخر أنبيائه على آياته كما وردت في سورة الإسراء.

وإذا كان لموسى وإلياس أن يظهرا بحضورهما الجسدي على (جبل التجلي) فقد أمكن لهما ولألوف الأنبياء - عليهم السلام - أن يظهروا حول الهيكل في بيت المقدس خلال (الحضور المفاجئ)

لمحمد إلى (مسجده) (سفر ملاخي 1/3) عندما عززه الله بالمجد (سفر حجي 2/7-9).

لقد اختارت السيدة آمنة بنت وهب أرملة عبد الله بن عبد المطلب لولدها اليتيم أول اسم علم في تاريخ البشرية (حمد) أو (أحمد) وهذا بحسب اعتقادي المتواضع أعظم معجزة لصالح الإسلام.

وقد أعاد الخليفة الثاني عمر بن الخطاب بناء المسجد العظيم الذي ما زال باقياً في القدس، وسوف يبقى حتى نهاية العالم دليلاً على صدق العهد الذي عقده الله تعالى مع إبراهيم وإسماعيل (سفر التكوين 15/16-17).

الفصل الثاني

العهد وحق البكورية

هناك نزاع ديني قديم جداً بين بني إسماعيل وبني إسرائيل حول أحقية الابن ليكون البكر في وراثة أبيه. والذين قرؤوا الكتاب المقدس والقرآن الكريم يعرفون جيداً سيرة النبي العظيم إبراهيم وولديه إسماعيل وإسحق وسيرة ذرّيتِهِ حتى موت حفيده يوسف (بن يعقوب بن إسحق بن إبراهيم) في مصر (سفر التكوين الفصل 11-49).

وبحسب ما يدّعيه سفر التكوين فإن إبراهيم هو العشرين بعد آدم عليه السلام من ناحية السلالة، وقد عاصر النمرود الذي بنى برج بابل الشهير.

كانت بداية بعثة إبراهيم في أور كلدان، وقد أورد سيرته المؤرخ اليهودي المشهور (يوسف فلافيوس) في كتابه المسمى (العصور القديمة Antiquities) وقصته أيضاً واردة في القرآن الكريم. كان (آزر) أبو إبراهيم يعبد الأصنام، في حين كان إبراهيم مؤمناً بالله، وقد دخل مرة إلى المعبد وحطم الأصنام، وبذلك كان الأنموذج الأول لحفيده محمد ﷺ، وقد انتقم منه النمرود بأن ألقى به في النار،

ولكنه نجا منها سالماً منتصراً بمعجزة إلهية، غادر بعدها وطنه إلى حران، ومعه أبوه وابن أخيه لوط، وعندما بلغ الخامسة والسبعين من عمره توفي أبوه في حران، وبعدها انطلق إبراهيم برحلة طويلة نحو أرض كنعان ثم مصر ثم شبه الجزيرة العربية استجابة للدعوة الإلهية.

كانت زوجه سارة عاقراً، ولكن الله بشره بأنه سوف يصبح أباً لأمم عديدة وأن ذريته سوف ترث كل البلاد التي يجتازها، وسوف تكون مباركة (سفر التكوين 12/2-3) ومرة عندما نظر إلى السماء ليلاً أوحي إليه أن ذريته سوف تصبح كعدد النجوم وكعدد حبات الرمل على شواطئ البحار. وتقبل إبراهيم ذلك الوعد الإلهي الفريد العظيم في تاريخ الأديان بإيمان لا يتزعزع على الرغم من أنه لم يكن له ذرية حتى ذلك الحين.

كانت أَمَتُه (هاجر) فتاة مصرية فاضلة تعمل في خدمة سيدتها سارة، وقد زوجتها سارة لإبراهيم وهو في السادسة والثمانين من عمره رغبة في الذرية، وبالفعل ولدت له إسماعيل. وعندما بلغ إسماعيل الثالثة عشرة من عمره تكرر الوحي إلى إبرهيم، وتكرر وعد الذرية، وتقررت شعيرة الختان، وكان إبراهيم في التاسعة والتسعين من العمر حينما جرى ختان ولده إسماعيل والخدم الذكور كافة في بيته. وكأنما كان ذلك نوعاً من المواثيق بين الله وإبراهيم؛ فقد كان إبراهيم مؤمناً متفانياً، فوعده الله أن يحمي

إسماعيل وذريته التي سترث الأرض الموعودة. ثم إنه عندما بلغ إبراهيم مائة عام من العمر وبلغت زوجه سارة التسعين أنجبت ولداً أسمياه إسحاق لكي يتم أمرُ الله ووعده.

ويذكر سفر التكوين ـ الذي لم يتقيد بالتسلسل الزمني للأحداث ـ أن إبراهيم طرد إسماعيل وأمه هاجر بطريقة غاية في القسوة تنفيذاً لرغبة سارة[1] بعد ولادة إسحاق (التكوين 10/21). ثم تاه إسماعيل وأمه في الصحراء وأوشكا على الموت عطشاً لولا أن تفجرت عين من الماء شربا منها ونجيا. ولا يذكر سفر التكوين شيئاً بعد ذلك عن إسماعيل سوى زواجه من امرأة مصرية، وأنه حضر مع إسحاق وفاة أبيهما ودفنه. ثم يقص سفر التكوين سيرة إسحاق وولده يعقوب ونزول يعقوب في أرض مصر، وينتهي بوفاة ولده يوسف.

وهناك حدث مهم آخر في تاريخ إبراهيم ورد في سفر التكوين (الفصل 22)، وهو اختبار إبراهيم بالتضحية بابنه الوحيد إسماعيل وكيف أن الله تعالى افتدى الغلام بكبش عظيم، وهو ما قصّه علينا القرآن الكريم في سورة الصافات في الآيات (102-107): ﴿ **فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا**

(1) عند المسلمين فإن هاجر وإسماعيل هاجرا إلى مكة تنفيذاً للوحي الذي تلقاه إبراهيم ولا علاقة لذلك برغبة سارة، ذلك أن الخطة الإلهية اقتضت انتقال النبوة إلى سلالة إسماعيل بعد أن يرفض اليهود آخرَ أنبيائهم عيسى عليه السلام. (المترجم).

﴿تَرَىٰ قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ ﴿١٠٢﴾ فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ وَنَادَيْنَاهُ أَن يَا إِبْرَاهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ ﴿١٠٦﴾ وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴿١٠٧﴾﴾ فأثبت إبراهيم بذلك أن حُبه لله فاق كل عاطفة بشرية.

تلك نبذة مختصرة لحياة إبراهيم كمقدمة لبحث أحقية البكر في وراثة عهد أبيه، حيث نلاحظ حقائق ثلاثة تقتضي أن يقبلها كل مؤمن:

الأولى: أن إسماعيل هو الابن الشرعي لإبراهيم، ولذا فإن حقه في البكورية شرعي وعادل.

الثانية: أن العهد كان بين الله وبين إبراهيم قبل ولادة إسحاق، ولولا تكرار الوعد (من خلال ذريتك سوف تبارك كل الأمم على وجه الأرض) بصيغة مختلفة، وأيضاً (ذلك الذي سوف يخرج من أحشائك سوف يرثُك) (سفر التكوين 4/15)، وتحقق هذا الوعد بولادة إسماعيل (سفر التكوين 16) مما كان عزاء لإبراهيم؛ لأن كبير الخدم أليعازر لم يعد وريثه، لولا كل ذلك لكان العهد وتشريع الختان غير ذي معنى ولا قيمة. ولذلك وجب أن نعترف بأن إسماعيل كان الوارث الحقيقي والشرعي لامتيازات ومكانة أبيه الروحية، وأن هذا الإرث الذي استحقه إسماعيل وذريته لكونه الابن البكر لم يكن خيمة والده ولا مواشيه وإنما كان إخضاع كل

الأرض الممتدة من النيل إلى الفرات وسكانها إلى الأبد (سفر التكوين 18/15، 20/17)، وبالفعل فإن تلك البلاد لم تخضع قط لذرية إسحاق، ولكنها خضعت لذرية إسماعيل، مما يعدّ تحقيقاً حرفياً وفعلياً لأحد نقاط العهد.

الثالثة: أن إسحاق ولد أيضاً بمعجزة وأنه كان مباركاً من الله وأن أرض كنعان كانت الأرض الموعودة لأتباعه، وقد احتلوها فعلاً تحت إمرة (يوشع)، والمسلمون يؤمنون بنبوة إسحاق ويعقوب كما يؤمنون بنبوة إسماعيل وبقية الرسل والأنبياء المذكورين في القرآن الكريم.

وعلى كل هذا لا يجب أن يكون هنالك نقطة خلاف جوهرية بين ذرية إسماعيل (المسلمين) وبين ذرية إسحاق ويعقوب (اليهود) فلو كان (حق البكورية) و(مباركة الله) متعلقين فقط بميراث السلطة والأراضي لأمكن تسوية مثل هذا الخلاف، وقد سوي فعلاً بالسيف، والدليل على ذلك الحقيقة الواقعة وهي سكنى المسلمين لكل الأرض الموعودة، ولكن نقطة خلاف متعلقة بالعقيدة بين اليهود وبين بني إسماعيل، وقد مضى على وجودها ما يقرب من أربعة آلاف عام، وهي مسألةُ المسيح ومحمد؛ فاليهود لا يعترفون بتحقق ما يسمى بالنبوءات المسيحانية عن مجيء المخلّص لا في بعثة عيسى ولا في بعثة محمد، وقد كان اليهود دوماً في غيرة من إسماعيل؛ لأنهم يعرفون جيداً أنه يُجَسّد (العهد)، وبختانه ختم العهد وبدافع من تلك الغيرة والحقد والضغينة قام كتبتهم وفقهاؤهم بتحريف الكثير من

نصوص كتبهم المقدسة فحذفوا اسم إسماعيل من الفقرات: الثانية، والسادسة، والسابعة من الفصل الثاني والعشرين من سفر التكوين ووضعوا اسم إسحاق بدلاً منه، في حين أبقوا على الوصف الخاص بإسماعيل: وهو (الابن الوحيد) مما يعدّ إنكاراً لوجود إسماعيل وخرقاً للعهد الذي قطعه الله تعالى لإبراهيم ولإسماعيل حيث ينص: (لأنك قبلت أن تضحي بابنك الوحيد من أجلي، وسوف أزيد وأضاعف من ذريتك، ليصبح عددهم كعدد النجوم، وكعدد حبات الرمل على شاطئ البحر) وكلمة (أضاعف) جاءت أيضاً في خطاب الملاك إلى (هاجر) وهي في القفر على هذا النحو: (إن الله سوف يضاعف ذريتك إلى عدد لا يحصى وسوف يصبح إسماعيل خصيباً ذا ذرية كثيرة) (سفر التكوين 12/16)، وقد قام النصارى بعد ذلك بترجمة الكلمة العبرية (خصيب الذرية) من الفعل (برا) الذي يقابله بالعربية (وفرة) ترجموها إلى (الحمار المتوحش)، أليس من العار والفسوق أن يُنعت إسماعيل بالحمار الوحشي وهو النبي الذي كلمه الله وبشر والديه بأنه سيكون خصيب الذرية؟

ومن المهم جداً ملاحظة أن عيسى المسيح نفسه وبخ اليهود الذين قالوا إن الرسول العظيم الذي يدعونه (المخلّص) سوف يكون من سلالة الملك داود (إنجيل برنابا)، وأوضح لهم أن المخلّص لا يمكن أن يكون ابناً لداود؛ لأن داود نفسه يعدّ هذا الرسول سيده (متى 44/22) و(مرقص 36/12) و(لوقا44/20)، كما أوضح لهم

كيف حرَّف آباؤهم الكتب المقدسة وأن (العهد) لم يبرم مع إسحاق كما يزعمون بل مع إسماعيل الابن الأكبر الذي قدمه أبوه أضحية لله، وإن تعبير (ولدك الوحيد) الذي ورد في العهد القديم قصد به إسماعيل وليس إسحاق.

أما القديس بولس الذي يدعى أنه من حواريّي عيسى المسيح عليه السلام فقد استعمل كلمات فظة بحق هاجر وإسماعيل (سفر غلاطية 21/6-31)، وناقض سيده المسيح صراحة وبذل قصارى جهده لتضليل النصارى بعد أن كان يضطهدهم قبل اعتناقه الدين المسيحي، وذلك واضح في كتاباته في الأسفار المنسوبة إليه، التي تغص في غاية التناقض مع روح الكتاب المقدس ومع تعاليم عيسى المسيح، كان بولس محامياً يهودياً مهووساً من الفريسيين ويبدو أنه ازداد هوساً بعد تحوله إلى الدين المسيحي، وبسبب كرهه لإسماعيل (نظراً لأحقيته بالعهد) فقد نسي أو تغاضى عن وصايا موسى التي تحرم زواج الرجل من أخته تحت طائلة القتل، ولو كان بولس يتلقى الوحي من الله كما ادعى لأدان كتاب سفر التكوين لكونه محشواً بالأباطيل، ومنها أن إبراهيم كان زوجاً لأخته(20/12) ولم يتورع بولس عن أن يشبه هذا بجبل سيناء العاقر كما يدعي، بينما يصف سارة بأنها أورشليم العليا التي تلد الأحرار (سفر غلاطية 25/4-26) فهل قرأ القديس بولس في حياته عقاب الملعونين الآتي؟

(ملعون ذلك الذي يضطجع مع أختـه ابنة أبيـه أو ابنة أمـه، والناس جميعاً يقولون آمين) (سفر تثنية الاشتراع 22/27).

وهل يوجد قانون بشري أو سماوي يعد من كان أبوه خاله وأمه عمته في نفس الوقت نفسه أكثر شرعية من ولادة من كان أبوه كلدانياً وأمه مصرية؟؟ وهل يستطيع أي مؤمن أن يطعن في عفة وتقوى هاجر زوج النبي إبراهيم وأم النبي إسماعيل؟.

إن الله الذي أعطى العهد لإسماعيل قد أنزل قانون الوراثة الآتي:

(إذا كان لرجل زوجتان إحداهما مفضلة على الأخرى، وكان لكل منهما ولد، وإذا كان ابن غير المفضلة هو الولد البكر، فإن البكر هو صاحب حق البكورية وليس ابن الزوجة المفضلة، وعليه فإن الولد البكر سوف يرث ضعف ما يرث أخوه) (سفر تثنية الاشتراع 21/15-17). أليس هذا القانون من الوضوح بما يكفي ليسكت جميع الذين يجادلون في حق البكورية لإسماعيل؟

والآن نبحث مسألة أحقية إسماعيل في العهد بصورة مختصرة، كان رسول الله إبراهيم شيخ قبيلة رحّل، ينتقل من مكان إلى آخر، ويعيش في خيمة، ويملك قطعاناً من المواشي، ومن المعروف أن البدو الرحّل لا يرثون أرضاً ولا مرعى، ولكن الأمير يخصص لكل من أبنائه عشيرة تخضع له. وكقاعدة متبعة يرث الابن الأصغر

خيمة أبيه، أما الابن الأكبر فيخلف أباه في الحكم إلا إذا لم يكن أهلاً لذلك.

وقد انطبق هذا الوضع على ولدي إبراهيم، فإسحاق أصغرهما ورث خيمة أبيه، وأصبح مثله بدوياً ينتقل من مكان إلى آخر، أما إسماعيل فأُرسل إلى الحجاز ليحرس بيت الله الذي كان قد بناه مع أبيه، كما يذكر القرآن الكريم ﴿**وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ**﴾ (سورة البقرة، الآية 127)، وهناك استقر إسماعيل وأصبح نبياً وتبعته القبائل العربية التي آمنت به، وفي مكة أو (بكة) أصبحت الكعبة قبلة للحجاج، ونشر إسماعيل دين الله، وسن مشروعية الختان، وتكاثرت ذريته بسرعة كنجوم السماء، وبقي العرب من بعده في شبه الجزيرة العربية أسياداً في أوطانهم عجزت إمبراطوريتا الروم والفرس عن إخضاعهم، وعلى الرغم من من انتشار عبادة الأصنام بينهم فيما بعد إلا أنهم بقوا على ذكر الله وذكر إبراهيم وإسماعيل وغيرهم من الأنبياء.

وبالمثل فإن (عيص) الابن الأكبر لإسحاق ترك مسكن أبيه لأخيه الأصغر يعقوب، واستوطن إيدوم (جنوب البحر الميت بفلسطين) حيث تزعّم شعبه وامتزج مع قبائل إسماعيل العربية، وأما ما يقصّونه من أن عيص باع حقه في البكورية إلى يعقوب مقابل طبقٍ من الحساء فلا يعدو أن يكون محاولة خبيثة لتبرير سرقة حق البكورية من إسماعيل، فقد زعموا أن (الله كره عيص وأحب يعقوب

وهما مازالا توأمين في رحم أمهما، وأن على الابن الأكبر أن يخدم أخاه الأصغر(سفر التكوين 25، سفر رومية 9/12-13)، والعجيب أن هناك قصة أخرى في سفر التكوين تذكر لنا أن الأمر كان على عكس ذلك، إذ يذكر الفصل (33) من سفر التكوين أن يعقوب كان يخدم عيص ويركع أمامه سبع مرات قائلاً: (سيدي) أو (عبدك سيدي).

وقد ذكر أن إبراهيم رزق من الأبناء الآخرين من (قيتورا) ومن محظياته وأنه أرسلهم نحو الشرق بعد أن زودهم بالهدايا، ومن ذرياتهم تكونت قبائل كبيرة وقوية، وقد ذكروا أسماء اثني عشر من أبناء إسماعيل أصبح كل منهم أميراً على مدنه ومعسكراته (سفر التكوين 25)، وأيضاً أبناء إبراهيم من (قيتورا) والمحظيات وأبناء عيص، كلهم ذكروا بالاسم.

وحين نلاحظ أن عدد أفراد عائلة يعقوب عندما ارتحل إلى مصر للقاء ابنه يوسف كان لا يكاد يبلغ سبعين شخصاً، وأن عيص التقاه ومعه أربعمائة من الفرسان فقط، في حين أن القبائل العربية الكثيرة قد خضعت لحكم الاثني عشر أميراً من ذرية إسماعيل، ثم إن محمداً ﷺ بعد أن وحّد جميع القبائل العربية تحت راية الإسلام انطلقت تفتح البلاد الموعودة. إننا حين نفكر بذلك، نقف على الحقيقة الساطعة التي يستحيل التغاضي عنها، وهي أن العهد قد أعطي لإسماعيل وأنه تحقق فعلاً على يدي حفيده محمد ﷺ.

وفي الختام ألفت نظر الدارسين والمتخصصين في الدراسات العليا في نقد الكتاب المقدس إلى حقيقة مهمة، وهي أن التنبؤات عن قدوم مسيح (مخلّص) منتظرٍ من سلالة داود كانت جزءاً من دعاية مبتدعة لصالح سلالة داود بعد انقسام مملكة سليمان إلى قسمين، ولكن النبيين إلياس واليسع اللذين اشتهرا في زمن مملكة السامرة (إسرائيل) لم يذكرا داود أو سليمان، كما أنه بعد انقسام مملكة سليمان لم تعد القدس مركزاً دينياً للقبائل الاثني عشر وإنما فقط لقبيلتي (سبطيْ) يهوذا وبنيامين، ولذلك انتفت ادعاءات سلالة داود القائلة بالحكم الأبدي في مدينة القدس.

ولكن الأنبياء من أمثال أشعيا وغيره ممن ارتبطوا بمعبد القدس وبيت داود كانوا قد تنبؤوا بقدوم النبي العظيم صاحب السلطان الكبير خاتم الأنبياء والرسل، وأنه سيوف يُعرف بعلامات معينة واضحة مما سوف ندرسه في الفصول القادمة.

الفصل الثالث

لغز المصفا

سأحاول في هذا الفصل أن أشرح التقديس العبري القديم للحجر، وهو أمر أسّسه في مكة إبراهيم وإسماعيل، كما أسّسه في أرض كنعان إسحاق ويعقوب، وفي مؤاب وأماكن أخرى أسّسه آخرون من سلالة إبراهيم.

ومن المفهوم أن عبارة تقديس الحجر لا تعني عبادته، فذلك من الوثنية، ولكن المقصود هو عبادة الله عند حجر معين خُصص لذلك الغرض، ففي حياة التنقل والبداوة لم يكن للأسرة أو القبيلة موطن دائم تبني فيه بيتاً مخصصاً لعبادة الله، لذا اعتادت على نصب حجر ما تحج إليه وتطوف حوله سبع مرات في كل مكان تقيم فيه. إن كلمة (حج) متطابقة تماماً من حيث المعنى والأصل في اللغات السامية، فكلمة حجاج العبرية Hagag هي نفسها كلمة حجاج العربية Hajaj والفرق الوحيد بينهما هو لفظ الحرف الثالث من الأبجدية السامية وهو الجيم التي يلفظها العرب جيماً. وإن شريعة موسى تستخدم هذه الكلمة بعينها وهي Hagag في أو حغاغ[1]

(1) في العبرية والآرامية لا تلفظ (ج) كما في العربية وإنما تلفظ كحرف g اللاتيني، أو تلفظ غ في بعض الأحيان.

وتعني الهرولة حول صرح أو حجر بخطوات منتظمة لدى الاحتفال بعيد ديني. وفي الشرق لا يزال النصارى يمارسون ما يسمونه حجة Higag في أثناء أعيادهم أو في الأعراس.

وعلى ذلك فلا علاقة للفظ (حجة) بمعنى الحج بكلمة Pelerin-fage أو Pilgrimage المشتقة من كلمة Pellegrino التي اشتقت بدورها من الكلمة اللاتينية Peregrinus بمعنى الأجنبي.

كان إبراهيم في أثناء ترحاله وعند إقامته المؤقتة في مكان ما يقيم مذبحاً للعبادة والأضاحي في مناسبات معينة. وقيل: إن يعقوب عندما كان في طريقه إلى حاران وشاهد رؤيا السلم العجيب نصب حجراً هناك وسكب عليه الزيت وسماه بيت إيل (Bethel)أي: بيت الله. ثم عاد لزيارة ذلك الحجر بعد عشرين عاماً وسكب عليه الزيت والخمر حسبما يدعيه سفر التكوين (22-10/28) (35) ، كما نصب يعقوب، مع حماه ـ والد زوجته ـ حجراً فوق كومة من الحجارة، وأطلق عليه اسم (مصفا) (سفر التكوين 55-45/31).

وقد أصبحت هذه (المصفا) فيما بعد مكاناً للعبادة ومركزاً للمجالس القومية في تاريخ شعب إسرائيل، فعند المصفا نذر البطل اليهودي نفتاح نذراً أمام الرب، وبعد أن هزم العمونيين قيل: إنه قدم ابنته الوحيدة لتحرق قرباناً (سفر القضاة 11). وعند المصفا تجمع أربعمائة ألف مقاتل من قبائل إسرائيل الإحدى عشر وأقسموا أن

يستأصلوا قبيلة بنيامين (الثانية عشر) بسبب الجريمة البشعة التي اقترفتها في جبعة (سفر القضاة 20، 21)، وعند المصفا دعا النبي صموئيل الناس لكي يقسموا أمام الرب أن يدمروا جميع أصنامهم وتماثيلهم ونجوا بعد ذلك من الفلسطينيين (سفر صموئيل الأول7) وعند المصفا اجتمعت الأمة وتم تنصيب طالوت (شاؤول) ملكاً على العبرانيين (سفر صموئيل الأول 10) وباختصار فإن كل قضية مهمة كان يُبَتُّ فيها عند المصفا أو (البيت إيل).

ويبدو أنهم كانوا يبنون هذه (المصفايات) على مصاطب مرتفعة تدعى رامـوث) أي: المكان المرتفع، ثم أضـافـوا إليـهـا الأصنام والتماثيل شأنها شأن الكعبة في مكة المكرمة، وقد حافظوا على احترامهم لها حتى بعد بناء معبد سليمان في القدس، كما أنه بعد خراب القدس والمعبد على أيدي الكلدانيين احتفظت المصفا بطابعها المقدس إلى عهد المكابيين في أثناء حكم الملك أنطيوخوس.

أما معنى كلمة (مصفا) فهي تترجم عادة إلى (برج المراقبة) وهي أيضاً البناء الحجري الذي يشتق اسمه من (مصفا)، وهي كلمة قديمة معناها حجر، وعلى الرغم من أن الكلمة العبرية المألوفة التي تطلق عادة على الحجر هي (ايبنّ) وفي العربية حجر وفي السريانية (كيبا) فإن كلمة صفاة مشتركة بين اللغات السامية، ومن هنا فإن المعنى الحقيقي لـ(مصفا) هو المكان الذي يثبت فيه الصفاة على الحجر. علماً أنه عندما أطلق اسم مصفا لأول مرة

على الحجر المنصوب فوق كومةٍ من الحجارة كان الحجر قائماً بمفرده دون أي صرح حوله.

ولشرح مغزى الصفا، لا بد من الاعتماد على صبر قرائي الذين لا يعرفون العبرية، إن اللغات السامية بما فيها العربية والعبرية تفتقر إلى حرف P في أبجديتها.

أما في اللغة الإنكليزية فهم ينقلون الصوت F الذي يرد في أي كلمة سامية أو يونانية على شكل Ph بدلاً من F مثل (Mustapha Philosophy,).

وعندما لقب المسيح أول تلاميذه سمعان (شمعون Simon) باللقب الشهير (صخر) أو (Petros) أي بطرس، لا بد من أنه كان يفكر بكلمة صفا القديمة. وللأسف فإننا لا نستطيع أن نحدد بالضبط الكلمة التي استخدمها بلغته لهذا الغرض، ذلك أن كلمة بطرس أي Petros بصيغة المذكر، أو Petra بصيغة المؤنث، غير مألوفة وغير يونانية لدرجة أن المرء يحار في سبب استعمالها من قبل الكنائس، ولكن الترجمة السريانية للكتاب المقدس المسماة (Pe-shitta) استخدمت كلمة (كيفا Kepha) أو (كيبا Kepa) لتؤدي المعنى المقصود، وحتى النص اليوناني قد احتفظ بالاسم الأصلي كيفاس Kiphas (الذي كتبته الترجمات الإنكليزية على شكل Ce-phas) مما يؤيد أن المسيح تكلم اللغة الآرامية وأعطى تلميذه الأول لقب (كيفا Kepha).

وفي التراجم العربية القديمة للعهد الجديد ورد اسم القديس بطرس أنه سمعان (شمعون) الصفاة أي: سمعان الصخرة أو الحجر، وكلمات المسيح (أنت بطرس) يقابلها في الترجمة العربية (أنت الصفاة) (إنجيل متى 18/16، وإنجيل يوحنا 42/1...إلخ).

وينتج من كل هذا أنه إذا كان سمعان (شمعون) هو الصفاة فإن الكنيسة التي تقام على الصفاة هي المصفا. وكون المسيح قد شبه سمعان بـ(الصفاة) وبحيث تكون الكنيسة (مصفا) أمر يلفت النظر بصورة واضحة، إذ عندما أحاول فك هذا التشبيه والحكمة المتضمنة فيه أرى الحقيقة الهائلة نفسها عن استحقاق (محمد) للقبه المختار وهو (المصطفى).

ولاستيضاح ما ذكر أعلاه قد يطرح بعضهم الأسئلة الآتية:

أ- لماذا اختار المسلمون والموحدون من سلالة إبراهيم الحجر لكي يؤدوا طقوسهم الدينية عنده؟.

ب- لماذا سمي هذا الحجر (صفاة)؟

جـ- ما قصد الكاتب من كل ذلك؟

لقد اختير الحجر كأنسب مادة يستطيع المسافر أن يقوم بطقوسه الدينية عنده، أيضاً لتخليد النذور التي قد يكون قطعها على نفسه، ولهذا الغرض لا يمكن لأي مادة أخرى أن تضاهي الحجر من ناحية صلابته وديمومته وبساطته وانعدام قيمته المادية:

فلو كان من الذهب أو الفضة أو المعدن لتعرض للسرقة، وكانت شريعة موسى تمنع نحت حجر المذبح أو عمل نقوش أو زخارف عليه؛ لئلا يعبده الجهلاء، ولم يكونوا يعدون الصفا وحده مقدساً بل كانت البقعة التي حوله مقدسة أيضاً، مما يفسر كيف أن القرامطة الذين أخذوا الحجر الأسود من الكعبة وأبقوه معهم عشرين سنة اضطروا لإعادته؛ لأنهم لم يستطيعوا تحويل الحجاج عن الكعبة، ولو كان الحجر الأسود من الذهب أو من أي عنصر ثمين آخر لما أمكن أن يدوم حوالي خمسة آلاف سنة، كما أنه لو احتوى على بعض النقوش أو الصور لأزاله الرسول محمد ﷺ بنفسه.

نعود إلى فكرة برج المراقبة (المصفا) حيث كان الشخص الذي يراقب من البرج يسمى صوفي (Sophi) وفي الأصل كانت (المصفا) مجرد مزار على مكان منعزل مرتفع حيث كان يعيش المراقب الصوفي مع أسرته (سفر الملوك الثاني 9/ 17 وغيره) وهو رجل الدين المسمى (روي Roi أو جوزي Hozi) ومعناها العراف أو المترقب (سفر صموئيل الأول 9/9)، وبالطبع فإن علماء اللغة العبرية يعرفون جيداً كلمة (مصفي) التي تعادل في العربية المُصَفّي وهو الشخص الذي يغربل الغث من السمين، وقد كان عمل المراقب (الصوفي) أن يراقب من برج المراقبة (المصفا) من أجل تمييز الحجاج في الصحراء، أو التحذير من خطر ما أو للتعرف على شخصية معينة بين القادمين، وبعد تأسيس إسرائيل في أرض

كنعان ازداد عدد (المصفايات) وسرعان ما تحولت إلى مراكز دينية مهمة تطورت إلى معاهد للتعليم وجمعيات دينية، ويبدو أنها صارت تشبه الجماعات الصوفية الإسلامية مثل المولوية والبكداشية والنقشبندية وغيرها، وكان لكل منها شيخها ومرشدها، كما كانت هناك مدارس ملحقة بكل مصفا حيث كان يجري تدريس الشريعة والدين والأدب العبري وعلوم أخرى.

ولكن بالإضافة لهذا العمل التعليمي كان الصوفي رئيس المصفا يلقن تلاميذه تعاليم الدين الخاصة مما يعرف الآن باسم الصوفية، والواقع أن من نعرفهم الآن باسم الصوفية كانوا يسمون عندهم (نبييم) مجازاً أي: أنبياء، بدليل أنه عندما مُسح طالوت (شاؤول) بالزيت وتُوِّجَ ملكاً انضم إلى الصوفية وأُعلن في كل مكان (انظروا شاؤول أيضاً بين الأنبياء) (سفر صموئيل الأول 10/9-13).

واستمرت الصوفية بين العبرانيين في جمعيات دينية خاصة تحت إشراف الأنبياء المذكورين حتى وفاة الملك سليمان وانقسام مملكته إلى قسمين (مملكة إسرائيل ومملكة يهوذا)، ويبدو أن ذلك قد سبب انشقاقاً عظيماً بين الصوفيين أيضاً.

إلا أنه مهما كان وضع الصوفيين العبرانيين بعد الانشقاق الديني والقومي الكبير فمن المؤكد أن المعرفة الحقيقية بالله وعلوم الدين الخاصة ظلت محفوظة عندهم إلى أن ظهر عيسى عليه السلام، ونقل تلك العلوم إلى مجموعة من التلاميذ ترتكز على

سمعان الصفا، ثم أدام الصوفيون والمترقبون في المصفا المسيحية هذه المعرفة ونقلوها إلى تلاميذهم جيلاً بعد جيل حتى ظهر النبي المختار محمد المصطفى (مصطفي باللغة العبرية).

وقد ذكر العهد القديم أنبياء عدة متصلين (بالمصفاة)، ولكن كثيراً ما استخدمت الكتب العبرية كلمة (أنبياء) بصورة مبهمة أو بصورة مجازية، ولذلك يجب أن تفهم ما يعلن القرآن بوضوح: ﴿**اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ**﴾ (سورة الأنعام: الآية 124) فهو تعالى لا يعطي النبوة لشخص ما بسبب رفعة نسبه أو كثرة ثروته أو حتى تقواه، بل يعطيها حسب مشيئته تعالى؛ لأن الإيمان والتقوى والتأملات الروحية والصلوات والصيام والمعرفة الدينية قد ترفع الشخص الجيد ليصبح مرشداً روحياً أو إلى مرتبة ولي، ولكن ليس لدرجة النبوة؛ لأن النبوة لا يحصل عليها المرء بجهوده بل هي هبة من الله، حتى الأنبياء لم يكن هناك من الرسل سوى القلائل الذين بُعثوا بكتاب منزل خاص بهم، ويذكر بهذا الخصوص أن معظم الكتب اليهودية المقدسة كانت على الغالب من نتاج (المصفيات) قبل الأسر البابلي، ثم بعد ذلك تم تعديلها من قبل أيدٍ مجهولة حتى اتخذت شكلها الحالي.

ومن المفيد الآن أن نقارن بإيجاز الصوفية الإسلامية مع الكلمة اليونانية (Sophia) بمعنى الحكمة، إن الفلسفة بمعناها الواسع تُعنى بدراسة المبادئ الأولى للوجود، وهي تتجاوز قوانين

الفيزياء والطبيعة، وتحاول جاهدة الوصول إلى الحقيقة الأساسية، في حين أن التصوف الإسلامي هو التأمل في الله وفي النفس واتخاذ الرياضة الروحية سبيلاً للاتصال بالله، وإن تفوق الصوفية الإسلامية على الفلسفة اليونانية واضح من الموضوع الذي تتناوله، وهي حتماً أسمى من الرهبانية النصرانية من حيث تسامحها مع معتقدات الآخرين، فالمتصوف المسلم يكنّ الاحترام للأديان الأخرى، ويسخر من فكرة (الهرطقة)، ويبغض الاضطهاد والإكراه، في حين أن معظم قديسي النصارى كانوا إما من مضطهدي الهراطقة أو ممّن يسمونهم كذلك، أو كانوا هم أنفسهم مضطهدين من قبل الهراطقة، وقد ذاعت شهرتهم في كل الأحوال بسبب إسرافهم في التعصب وعدم التسامح.

إن الصوفية أو (الحكمة) التي تعني المعرفة الحقيقية بالله والعلم الصحيح عن الدين والأخلاق تعني أيضاً الاصطفاء الحق لخاتم رسل الله من بين جميع رسله، كل ذلك نبع من مؤسسة (الصفا) اليهودية حتى تحولها إلى (مصفا) نصرانية، ومن المدهش حقاً أن نرى صحة التشبيه وكيف أن التدبير الإلهي لأحوال الخلق يتم بغاية الدقة والانتظام. فمن خلال (المصفا) كان يُصفّي الناس وينخلون من قبل المصفّي كما لو كان ذلك يتم من خلال مصفاة الطعام (لأن هذا هو معنى الكلمة) بحيث يتم تمييز الحقيقي من الزائف والسمين من الغث، وتتوالى القرون ويأتي الكثيرون من

الأنبياء وعلى الرغم من ذلك فالمصطفى لا يظهر، ثم يأتي عيسى المسيح عليه السلام فيُقابَل من اليهود بالرفض والاضطهاد؛ لأنه سبق أن اندثرتْ من إسرائيل تلك (المصفاة) الرسمية التي كان بإمكانها أن تتعرف عليه كرسول حقيقي أرسل ليشهد أن المصطفى هو آخر نبي سوف يأتي بعده، إذ كان «المجمع الكبير للكنيس» الذي دعا إليه وأسسه عزير ونحميا والذي كان آخر أعضائه (سمعان العادل) (المتوفى حوالي 310 ق.م) كان هذا المجمع قد اندثر ثم خلفته المحكمة العليا في القدس والمسماة (ساهدرين) التي حكمت على عيسى المسيح عليه السلام بالموت؛ لأنها لم تدرك شخصيته ولا طبيعة رسالته السماوية، ولكن بعض الصوفية والحكماء عرفوا عيسى وآمنوا برسالته على الرغم من أن الجماهير في وقت ما ظنته المصطفى ونادت به ملكاً، غير أنه توارى عن الأنظار؛ لأنه لم يكن المصطفى، ولو كان هو المصطفى لكان من العبث أن يجعل من سمعان: (الصفا) ومن كنيستة: (المصفا)؛ لأن وظيفة (المصفا) كانت الترقب والبحث عن آخر الرسل حتى إذا جاء فيُنادى به على أنه المصطفى. ولو كان عيسى هو المصطفى لانتفت الحاجة إلى (المصفا) منذ مجيئه، وهذا الموضوع عميق وشائق جداً وجدير بالدراسة؛ لأن (محمداً المصطفى) هو لغز (المصفا) كما أنه كنز الحكمة (الصوفية).

الفصل الرابع

محمد ﷺ هو (الشايلوه)

عندما كان يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم (عليهم السلام) على فراش الموت بعد أن بلغ السابعة والأربعين بعد المائة من عمره دعا أولاده الاثني عشر إليه مع أسرهم، وبارك كلاً منهم، وتنبأ لكل منهم بمستقبل قبيلته وأوصاه، وهذا يعرف عادة (بعهد يعقوب)[1] وهو مكتوب بالعبرية بأسلوب أنيق ذي لمسة شعرية، ويتضمن عرضاً لمراحل حياته، ومن جملة ما يدّعيه سفر التكوين أن يعقوب استغل جوع أخيه عيص، واشترى منه البكورية بطبق من الحساء، ثم خدع والده العجوز الضرير وحصل على مباركته التي كانت من حق عيص بحكم كونه الابن البكر.

كما أنه خدم سبع سنوات ليتزوج من (راحيل) لكن والدها خدعه وزوجه أختها الكبرى (ليئة) بدلاً منها، ولذلك اضطر أن يخدم سبع سنوات أخريات من أجل زواجه بالثانية! كما حزن كثيراً بعد فقدان

(1) قال تعالى: ﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٣﴾﴾ (سورة البقرة: الآية 133).

زوجته المحبوبة راحيل ثم اختفاء ابنه المفضل يوسف لسنوات عدة ثم استرداد بصره بعد أن علم بوجوده، ثم التقاه في مصر مما كان مصدر سعادة كبيرة له، لقد كان يعقوب نبياً لقبه الله بإسرائيل، وهو الاسم الذي تمسكت به القبائل الاثنا عشر التي انحدرت من أبنائه.

تتكرر قصص اغتصاب حق الولد البكر في سفر التكوين، ويُصوّر يعقوب على أنه مثال الاعتداء على حقوق الآخرين، ويُقال: إنه أعطى حق بكورية حفيده (مَنشي) إلى أخيه الأصغر (أفرايم) على الرغم من احتجاجات والدهما يوسف (سفرالتكوين الفصل 48). كما أنه يحرم ابنه الأكبر (رأوبين) حق البكورية، وينعم به على يهوذا ابنه الرابع؛ لأن رأوبين ضاجع (بلهة) محظية يعقوب وأم ولديه (دان) و(نفتالي) ثم يحرم يهوذا؛ لأنه لم يكن أفضل من أخيه بعد أن زنى بـ(تامار) زوج أخيه، فأنجبت طفلاً أصبح جد كل من داود وعيسى المسيح حسب زعمهم (سفر التكوين الفصول 25-38)، ومن العجب كيف يصدق اليهود والنصارى أن مؤلف سفر التكوين (أو كاتب سفر التكوين أو محرره) ملهم من الروح القدس، ففي هذا السفر تنسب أشنع الجرائم وأفظع الفواحش للأنبياء وبيوت الأنبياء، كما يُقال فيه: إن يعقوب كان زوجاً لأختين في آن واحد مع أن ذلك مخالف للشريعة بشكل صارخ (سفر اللاويين 18/18)، وباستثناء (يوسف) و(بنيامين) فقد وصف سفر التكوين أبناء

يعقوب الآخرين بأنهم رعاة شرسون وكذابون وقتلة وزناة مما لا يليق بأسرة نبي، وبالطبع لا يقبل المسلمون ذلك بحق أي نبي من الأنبياء، ولا يصدقون الخطيئة المنسوبة ليهوذا، وإلا لكانت البركة التي أعطاها له أبوه يعقوب أمراً غريباً؛ إذ لا يمكن ليعقوب أن يبارك ابنه يهوذا الذي زعموا أنه كان ولد (بيرز) ابن زوج أخيه؛ لأن الزانين محكوم عليهم بالإعدام (سفر اللاويين 12/20)، وقد وردت كل هذه القصص الغريبة في سفر التكوين الفصول (25-50).

أما النبوءة الشهيرة التي تعد نواة لعهد يعقوب فقد وردت في (سفر التكوين 10/49) وهي كما يأتي:

(لا يزول الصولجان من يهوذا أو التشريع من بين قدميه حتى يأتي شايلوه، ويكون له خضوع الأمم)، هذه هي الترجمة الحرفية للنص العبري بقدر ما أستطيع فهمه، وإن كلمة شايلوه في النص فريدة لا تتكرر في أي مكان آخر من العهد القديم، وحسبما أعلم فإن جميع تراجم العهد القديم قد احتفظت بكلمة (شايلوه) كما هي دون ترجمة أو شرح عدا الترجمة السريانية المسماة البشيتا Peshitta فقد ترجمت الكلمة إلى (الشخص الذي يخصه) أي الشخص الذي يخصه الصولجان والتشريع، وبموجب هذه الترجمة المهمة فإن معنى النبوة يصبح واضحاً كما يأتي:

(إن صفات السلطان والنبوة لن تنقطع من يهوذا (وسلالته) إلى أن يجيء الشخص الذي تخصه هذه الصفات ويكون له خضوع الأمم).

ويحتمل أن كلمة (شايلوه) مشتقة من الفعل (شله Shalah) وفي هذه الحالة فهي تعني المسالم الهادئ الموثوق، كما أن هذا الفعل يعني أيضاً: أرسل وفوّض من اسم المصدر (شلوه Shaluh) أي المُرسَل أو الرسول، وعندئذ فإن الكلمة تأخذ معنى (شيلواح Shilu-ah) وتكون مرادفة تماماً لـ(رسول ياه Apostle of yah) وهو اللقب نفسه المعطى لمحمد (رسول الله)، والمعروف أيضاً أن كلمة (شيلواح) هي أيضاً تعبير فني لكلمة (الطلاق)؛ ذلك لأن الزوج المطلقة (ترسل) بعيداً، ولا أستطيع أن أجد تفسيراً لهذا اللقب المهم سوى هذه المعاني الثلاثة.

ومن المعروف أن اليهود والنصارى معاً يعتقدون أن عهد يعقوب هو أحد أبرز التنبؤات المسيحانية عن مجيء المخلّص المنتظر، ولا ريب أن المسلمين يؤمنون أن عيسى نبي الناصرة هو المسيح نفسه؛ لأن القرآن يثبت ذلك، والواضح أيضاً من الكتب المقدسة اليهودية أن لقب (المسيح) كان يطلق على كل من ملوك إسرائيل وكبار الكهنة ممن كانوا يُمسحون بالزيت المقدس المكوّن في معظمه من زيت الزيتون وعطور متنوعة، حتى إن قورش الزرداشي ملك فارس كان يُدعى (مسيح الله) حسبما ورد في سفر أشعيا: (هكذا قال الله لمسيحه قورش) (أشعيا 45/1-7)!!

أما بالنسبة لعيسى فحتى لو اعترف اليهود ببعثته النبوية - وهو الشيء الذي لم يحدث - فإن مهمته المسيحانية كمخلصٍ منتظر لم

تكن مقبولة لديهم؛ لأنه لم توجد فيه أيٌّ من صفات المسيح التي توقعوها، فاليهودي ينتظر مسيحاً مقاتلاً ذا سلطة دنيوية، وفاتحاً يُعيد مملكة داود، مسيحاً يجمع شمل إسرائيل في أرض كنعان، ويُخضع الأمم تحت سلطته.

غير أنه يمكن التأكد من تحقق نبوءة يعقوب حرفياً في (محمد) من الحجج الآتية:

1- هناك إجماع بين المعلقين أن التعبيرين المجازيين: (الصولجان) و(التشريع) معناهما (السلطة الدنيوية) و(النبوءة) على التوالي.

2- أن الترجمة السريانية للكتاب المقدس (البشيتا Peshitta) ترجمت كلمة (شايلوه) إلى (**الشخص الذي يخصه الصولجان والتشريع**)، وهو الذي يمتلك السلطة وحق التشريع، وتخضع له الأمم.

فمن يكون هذا السلطان والمشرّع العظيم؟

قطعاً ليس موسى؛ لأنه كان أول منظم لقبائل إسرائيل الاثني عشر، ولم يأتِ قبله أي ملك أو نبي من سبط يهوذا أصلاً، وحتماً ليس داود؛ لأنه كان أول ملك ونبي من نسل يهوذا نفسه، كما أنه ليس عيسى المسيح؛ لأنه أعلن بنفسه أن المسيح الذي تنتظره إسرائيل لن يكون من نسل داود (متّى 22/44-45، مرقص 12/35-37، لوقا 20/41-44) أضف إلى ذلك أن عيسى لم يترك تشريعاً

مكتوباً، ولم يفكر بسلطان دنيوي قط، وعلى العكس فقد نصح اليهود أن يخلِصوا لقيصر ويدفعوا له الضريبة، وفي إحدى المناسبات حاولت الجماهير أن تنصبه ملكاً، لكنه تنصل منها واختفى، وكان إنجيله محفوظاً في قلبه وقد بلّغ (البشارة السارة) ـ الإنجيل ـ شفاهة وليس كتابة، ولم يرد في نبوءاته أي شيء عما يسمونه الخلاص من الخطيئة الأصلية بوساطة شخص مصلوب ولا حكم الرجل الإله على قلوب البشر، كما أنه لم يبطل شريعة موسى، بل أعلن صراحة أنه قدِم لتحقيقها، وقطعاً لم يكن آخر الأنبياء فقد تحدث القديس بولس عن الكثير من «أنبياء» الكنيسة.

غير أن محمداً ﷺ جاء بالسلطة الدنيوية وبالقرآن يحلان محل الصولجان اليهودي المهترئ والشريعة البالية غير العملية والكهنوت الفاسد، أعلن محمد ﷺ أنقى الأديان وتوحيد الإله الحق، ووضع أفضل القواعد العملية لأخلاق وسلوك البشر، ووحّد بالإسلام أمماً من كل الأجناس لا تشرك بالله شيئاً، تطيع الرسول وتحبه وتحترمه، ولكنها لا تعبده ولا تقدسه ولا تجعله إلهاً، كما أن محمداً ﷺ سحق آخر معاقل اليهود في قريظة وخيبر ووضع نهاية لنفوذهم.

3- أن المعنى الثاني لكلمة (شايلوه Shiloh) ينصب أيضاً لصالح محمد، وهو يعني الهادئ المسالم الأمين الوديع، وهنالك صيغة آرامية لهذا المعنى هي «شيليا» من الجذر «شلا» وهو غير

موجود في العربية، ومن الحقائق المعروفة جيداً في تاريخ نبي بلاد العرب أنه كان قبل البعثة كثير الهدوء والمسالمة ومحلاً للثقة، مما جعل أهل مكة يسمونه (محمداً الأمينَ)، وعندما خلع عليه أهل مكة هذا اللقب لم تكن لديهم أدنى فكرة عن (شايلوه) بهذا المعنى، ومن الإعجاز أن الرسالة نزلت على العرب الوثنيين الأميين لكي يواجهوا بها اليهود المتعلمين الذين كان لديهم كتابات مقدسة يعرفون محتوياتها تماماً.

4- أما المعنى الثالث لاسم (شايلوه Shiloh) فقد لاحظت أنه قد يكون تحريفاً لـ(شلواح Shaluah)، وفي تلك الحالة فإنه يتطابق مع لقب النبي العربي الذي يتكرر كثيراً في القرآن وهو(الرسول) الذي يعني بالضبط ما تعنيه (شلواح) أي: رسول، وإن (شلواح إلوهيم) بالعبرية تعني (رسول الله) وهو ما يتكرر في نداء المؤذن خمس مرات كل يوم عندما ينادى للصلاة من جميع مآذن العالم، وإن كلمة «رسول» وردت مراراً في القرآن الكريم، ولكن لا نجدها في العهد القديم إلا مرة واحدة بصيغة (شايلوه أو شلواح) عند ذكر عهد يعقوب.

وأياً من المعاني نختار لتفسير نبوءة يعقوب فإننا مضطرون - بحكم تحققها جميعاً في محمد - أن نسلّم بأن اليهود ينتظرون عبثاً مجيء شايلوه آخر غير النبي محمد ﷺ، في حين أن النصارى مصرون على خطئهم في الاعتقاد أن عيسى كان هو المقصود (شايلوه).

وثمة نقاط في النبوءة تستحق التفكير:

أولاً: من الواضح أن السلطة والتشريع سيظلان في سبط يهوذا طالما أن شايلوه لم يظهر، وبما أن اليهود يدّعون أن شايلوه لم يظهر حتى الآن، فيفترض أن تكون كُلٌّ من السلطة الدنيوية والنبوة موجودتين لدى سبط يهوذا في حين أنهما انقرضتا منذ ظهور الإسلام في القرن السابع الميلادي؛ إذ بظهوره انتقلت النبوة من بني إسرائيل إلى بني إسماعيل.

ثانياً: يلاحظ أن قبيلة (سبط) يهوذا انقرضت ومعها السلطة الدنيوية والنبوية، فالقبيلة لم يعد لها وجود ككيان بارز مستقل يقطن بمجموعه في مكان محدد، وقد يستطيع اليهوديُّ أن يعرّف نفسه بأنه إسرائيلي، ولكنه لا يستطيع أن يدّعي أنه ينتسب لقبيلة أو أخرى من القبائل الاثنتيْ عشرة، فاليهود إذن مضطرون أن يقبلوا واحداً من خيارين: إما التسليم بأن شايلوه قد جاء من قبل دون أن يتعرف إليه أجدادهم، أو الإقرار أن قبيلة يهوذا التي يعتقدون أن شايلوه سينحدر منها لم تعد موجودة.

ثالثاً: نبوءة يعقوب تعني بصورة واضحة (ومعاكسة تماماً للاعتقاد المسيحي اليهودي) أن شايلوه يجب أن يكون غريباً تماماً عن قبيلة يهوذا بل عن جميع قبائل بني إسرائيل الاثنتي عشرة إذ تقول النبوءة بوضوح: إنه عندما يجيء (شايلوه) فإن السلطة والتشريع يختفيان من سلالة يهوذا، ولا يمكن أن يتحقق ذلك إلا إذا

كان (شايلوه) غريباً عن سلالة يهوذا؛ إذ لو كان (شايلوه) منحدراً من يهوذا فكيف يمكن أن ينقطع هذان الأمران من سلالته؟ كما لا يمكن أن يكون (شايلوه) منحدراً من قبيلة أخرى من سلالة يعقوب؛ لأن الصولجان والتشريع كانا لصالح إسرائيل وليس لمصلحة قبيلة واحدة، وهذه الملاحظة تنسف الادعاء المسيحي أيضاً؛ لأن عيسى منحدر من سلالة يهوذا من ناحية أمه كما يقولون.

وإني لأعجب من سلوك هؤلاء اليهود الضالين، طالما أن بني إسماعيل وبني إسرائيل هم من سلالة إبراهيم فما الفرقُ..؟ سواءٌ أكان شايلوه من يهوذا أم كان من زبولون، من عيص أو من يساك[1]، من إسماعيل أو من إسحاق، ما دام منحدراً من أبيهم إبراهيم؟

ادخلوا الإسلام وأطيعوا شريعته لكي يصبح بإمكانكم أن تعيشوا في الأرض التي سكنها أجدادكم بسلام وأمان.

(1) حسب سفر التكوين فإن يعقوب تزوج بنتيّ خاله وهما ليئة وراحيل، وتزوج أيضاً من زلفة جارية ليئة ومن بلهة جارية راحيل، وأعقب منهن اثني عشر ابناً يطلق عليهم الأسباط وهم:

ـ من ليئة: رأوبين ـ شمعون ـ لاوي (الجد الأكبر لموسى) ـ يهوذا (منه أخذت كلمة يهود، وهو الجد الأكبر لداود وسليمان ومريم) ـ يساكر ـ زبولون.

ـ من راحيل: يوسف ـ بنجامين.

ـ من زلفة: جاد ـ أشير.

ـ من بلهة: دان نفتالي.

الفصل الخامس

محمد وقسطنطين الكبير

في هذا الفصل نبحث إحدى رؤى النبي دانيال الذي كان في الأصل أميراً منحدراً من أسرة مالكة يهودية ثم أُخذ من القدس في أثناء السبي البابلي مع ثلاثة آخرين من أمراء اليهود إلى قصر نبوخذ نصّر في بابل حيث درس علوم الكلدانيين، وعاش هناك حتى الفتح الفارسي وسقوط الإمبراطورية البابلية، وقد بُعث في مدة حكم ملك بابل نبوخذ نصّر، ولا ينسب نقاد التوراة لدانيال كتابة كامل السفر المسمى باسمه؛ فالفصول الثمانية الأولى من السفر حسبما أعلم كانت مكتوبة بالكلدانية، أما القسم الأخير فهو عبري. وما يهمنا من سفر دانيال هو التحقق الفعلي للنبوءة الواردة في الترجمة السبعينية من الكتاب المقدس التي كتبت قبل العهد المسيحي بحوالي ثلاثة قرون.

وردت تلك النبوءة في الفصل السابع من سفر دانيال، ولعلها أروع وأوضح نبوءة عن البعثة النبوية لأعظم البشر وخاتم الرسل، وهي تستحق دراسة جادة ومحايدة؛ لأنها تصف بصورة رمزية

أحداثاً مهمة في تاريخ البشرية تلا بعضها بعضاً على حقب تزيد عن الألف عام، وقد رمز لها بوحوش هائلة أربعة. تصف هذه الرؤيا عواصف أربعة من السماء تزأر بمواجهة بحر عظيم يخرج منه على التوالي أربعة وحوش هائلة، أولها على شكل أسد مجنّح، والثاني على شكل دب يحمل ثلاثة أضلع بين أسنانه، والثالث على شكل نمر ذي أربعة أجنحة وأربعة رؤوس، ثم وحش ذو قرون عشرة وأسنان حديدية، ثم يبرز له قرن حادي عشر، فتتحطم أمامه ثلاثة قرون، وتظهر على القرن الحادي عشر أعين بشرية وفم بشري يتفوه بعبارات الكفر والإلحاد، وفجأة تظهر صورة الحي القيوم وسط ضوء متلألئ في السماء على عرش ذي لهب نوراني، ويتدفق أمامه نهر من النور تقف بين يديه ملايين الكائنات السماوية، وكما لو كانت محكمة القضاء منعقدة في جلسة غير عادية حيث تفتح الكتب، فيحترق الوحش الرابع بالنار، لكن القرن الذي يتفوه بالكفر يظل حياً حتى يؤتى (بابن الإنسان) محمولاً على السحاب، ويَمْثُل أمام رب العالمين، فيتلقى منه سلطاناً ومجداً وملكوتاً؛ لتخضع له الشعوب والأمم إلى الأبد. ويقترب النبي المبهور دانيال من أحد الملائكة راجياً أن يفسر له ما يرى، فيجيبه إن كلاً من الوحوش الأربعة يمثل إمبراطورية، فالوحش الذي على شكل أسد مجنح بأجنحة نسر يمثل الإمبراطورية الكلدانية التي كانت قوية كالنسر المنقض على عدوه، ويمثل الدب الإمبراطورية الفارسية التي امتدت

فتوحاتها حتى البحر الأدرياتيكي وأثيوبيا، وهكذا تحمل بين أسنانها ضلعاً من جسم كل من القارات الثلاثة.

وأما النمر الرهيب ذو الأجنحة والرؤوس الأربعة فيرمز في زحفه السريع إلى إمبراطورية الإسكندر الكبير التي انقسمت بعد موته إلى أربع ممالك، ولا يدخل الملاك في التفاصيل إلا عندما يتحدث عن الوحش الرابع؛ لأنه وحش ضخم وشيطان كبير، وهو يرمز إلى الإمبراطورية الرومانية الجبارة، والقرون العشرة منه تمثل أباطرة روما الذين اضطهدوا النصارى الأوائل، ومن المعروف أن تاريخ الكنيسة خلال القرون الثلاثة الأولى بعد المسيح وحتى زمن قسطنطين الكبير الذي ادعى النصرانية حافل بأهوال الاضطهادات العشرة الشهيرة.

والخلاصة أن الوحوش الأربعة تمثل قوى الظلام، أي: مملكة الشيطان، وبهذه المناسبة يجدر الانتباه إلى حقيقة إسلامية مهمة وهي: (أن الخير والشر من الله)، في حين أن قدماء الفرس آمنوا (بثنائية الآلهة)، أي: مبدأ الخير والنور مقابل الشر والظلام والعداوة الأبدية بينهما، كما أنه في جميع الأدبيات اللاهوتية والدينية المسيحية التي قرأتها لم أعثر على قول واحد يشبه هذا المبدأ الإسلامي بأن الله هو المصدر الحقيقي للخير والشر، مما يعدّ معارضاً للنصرانية، وأحد مصادر الكراهية للدين الإسلامي، على الرغم من أن الله تعالى قد أعلن هذا المبدأ بجلاء لقورش

الذي يقول عنه: إنه (مسيحه) ويريد منه أن يؤمن بالإله الواحد فقط فيعلن: ***(أنا مكون النور وخالق الظلام وصانع السلام وخالق الشر، أنا الإله الذي يصنع كل هذا)*** (سفر أشعيا 45/1-7)، ولا يوجد تعارض بين هذا المبدأ وبين فكرة أن الله خير؛ لأن مجرد إنكار ذلك يتعارض مع وحدانية الله المطلقة.

نعود الآن إلى رؤيا دانيال فنلاحظ أن الوحوش الرمزية الأربعة كانت عدوة (لشعب الله المختار)، وهو ما كان يُدعى به شعب إسرائيل القديم والنصارى الأوائل؛ لأنهم الوحيدون الذين كانوا يدركون المعرفة الحقيقية والكتب المقدسة ووحي الله، وذلك على النقيض من الإمبراطوريات الأربعة التي اضطهدتهم، ولكن طبيعة القرن الصغير الذي برز في رأس الوحش الرابع كانت تختلف عن طبيعة الوحوش الأخرى بحيث إن الله نزل إلى السماء الدنيا؛ ليقضي على الوحش الرابع بالدمار، ثم دعا إلى حضرته البرناشا (ابن الإنسان)، وأعطاه السلطان والمجد والملكوت كي تخضع له كل الشعوب والأمم والألسنة إلى الأبد (سفر دانيال 14/7)، وتكون أمته هي الأمة التي تقدس الله العلي القدير (سفر دانيال 27/7).

فمن هو ذلك القرن الصغير؟ إنه - دون شك - الإمبراطور الروماني الحادي عشر؛ فالقرن الصغير يبرز بعد حدوث الاضطهادات العشرة تحت حكم الأباطرة الرومان العشرة، ومن المعروف أنه قبل تولي قسطنطين الكبير كانت الإمبراطورية ترزح

تحت تنافُس أربعة مرشحين لمنصب الإمبراطور، كان قسطنطين واحداً منهم، وقد مات الثلاثة الآخرون أو قتلوا في المعارك، فخلا الجو لقسطنطين ليحكم الإمبراطورية الرومانية، وقد حاول الشارحون والمعلقون النصارى الأوائل عبثاً أن يصوروا هذا القرن الصغير البشع على أنه الدجال وعلى أنه بابا روما عند البروتستانت، وعلى أنه نبي الإسلام (معاذ الله)، كما أن النقاد التوراتيين المتأخرين محتارون في حل مشكلة الوحش الرابع، فيحاولون تصويره على أنه الإمبراطورية اليونانية وأن القرن الصغير هو (أنطيوخوس إبيفانس)، في حين أن الحيوان الرابع لا يمكن أن يكون إلا العالم الروماني القديم. وللبرهنة على أن القرن الصغير لم يكن سوى قسطنطين الكبير تطرح الحجج الآتية:

أ - تغلب قسطنطين على منافسيه الثلاثة وأصبح إمبراطوراً، وفي كتاب جيبون Gibbon (انحطاط الإمبراطورية الرومانية وسقوطها) أفضل تاريخ عن تلك العصور، ولن يكون باستطاعة أحد اختراع أربعة متنافسين بعد الاضطهادات العشرة للكنيسة إلا قسطنطين ومنافسيه الثلاثة الذين تساقطوا أمامه كما تساقطت القرون الثلاثة أمام القرن الصغير.

ب- رمزت الرؤيا إلى الإمبراطوريات الأربعة بوحوش غير عاقلة، لكن القرن الصغير كان له فم وعينا بشر، إنه وحش شنيع يملك المنطق والقدرة على الكلام، لقد أعلن عقيدة التثليث، وترك

روما للبابا، وجعل بيزنطة التي سماها القسطنطينية مركزاً للإمبراطورية، وتظاهر باعتناق النصرانية، لكنه لم يتعمد إلا قبيل موته، وحتى هذا أمر مختلف فيه، أما الأسطورة القائلة إن اعتناقه النصرانية كان بسبب رؤياه للصليب في السماء فقد ثبت أنها أكذوبة.

لقد اتبعت الوحوش الأربعة تجاه المؤمنين أسلوب المجابهة والوحشية، أما القرن العقلاني فقد كان شيطانياً خبيثاً؛ لأنه حرص على تحريف الديانة من الداخل، لقد دخل قسطنطين إلى حظيرة المسيح على صورة مؤمن وفي ثياب حَمَلٍ، لكنه في دخيلة نفسه لم يكن مؤمناً، فقد سمم الأفكار وأفسد العقيدة كما سنرى فيما يأتي:

جـ- تفوه القرن الصغير (الإمبراطور الحادي عشر) بكلمات وصلت إلى درجة الكفر بالله، وإشراك مخلوقاته معه، وتسميته بأسماء وصفات خرقاء (كالوالد) و(المولود) و(انبثاق الشخص الثاني والثالث) و(الوحدانية ضمن التثليث) و(التجسد)، كل ذلك من العقائد الفاسدة التي يعدّ العهد القديم دليلاً حياً على بطلانها، وهي كفر يمقته المسلمون واليهود معاً.

ومنذ نزول الوحي على إبراهيم في أور كلدان حتى إعلان عقيدة مجمع نيقية عام 325م، وتنفيذ قراراتها بمرسوم إمبراطوري من قسطنطين وسط ارتياع واحتجاج ثلاثة أرباع المشتركين في

مجمع نيقية لم يسبق قبل ذلك أن حصل تحدّ لوحدانية الله على مستوى الدولة وبشكل فاضح من قبل أدعياء الإيمان كما حصل من قِبَل قسطنطين وجماعته من الكهنوت، ولو جعل (براهما أو أوزيرس أو جوبتر أو فِستا) شركاء لله لاعتبرنا ذلك مجرد عقيدة وثنية، ولكن عندما نرى المسيح وواحداً من ملايين الأرواح المقدسة (الروح القدس) من عباد الله تعالى يُرفعان إلى مرتبة الألوهية، لا نجد ما نصف به أصحاب تلك العقيدة سوى الكلمة التي اضطر المسلمون لاستخدامها وهي الكفر، وإذا قال قائل: إن المقصود بالقرن ليس قسطنطين فالسؤال: من يكون إذن؟ لقد سبق أن جاء فعلاً، وهو ليس الدجال المفترض أن يظهر مستقبلاً.

وإذا لم نعترف أنَّ هذا القرن سبق أن ظهر فكيف يمكن تفسير الوحوش الأربعة التي يمثل أولها دون شك الإمبراطورية الكلدانية وثانيها الإمبراطورية الفارسية وثالثها إمبراطورية الإسكندر التي انقسمت بعده إلى أربع ممالك؟ وإذا لم يمثل الوحش الرابع الإمبراطورية الرومانية فهل هناك أي دولة أو قوة خلفت إمبراطورية الإسكندر سوى الإمبراطورية الرومانية ذات الحكام العشرة المتتاليين الذين اضطهدوا المؤمنين؟ إن القرن الصغير هو قسطنطين حتماً، وليس مهماً أن يكون كاتب الفصل السابع من سفر دانيال نبياً أو راهباً أو مشعوذاً؛ إذ المؤكد أن تنبؤاته ووصفه للحوادث قبل أربعة وعشرين قرناً ثبت دقتها وصحتها في شخص

قسطنطين الكبير ذلك الشخص الذي أحجمت كنيسة روما عن رفعه إلى مرتبة القديسين في حين فعلت ذلك الكنيسة اليونانية.

د- لم يكتفِ القرن الصغير بالافتراء والكفر، بل شنّ حرباً ضد المؤمنين واضطهدهم (سفر دانيال 22/7)، لقد اضطهد النصارى الذين اعتقدوا كاليهود بوحدانية الله المطلقة، وأعلنوا أن التثليث فكرة كاذبة وخاطئة ولا أساس لها في العقيدة، وعندما دعي أكثر من ألف من رجال الكهنوت إلى نيقية (أزنيق حالياً) وافق (318) منهم فقط على قرارات المجلس، وحتى هؤلاء الذين وافقوا كانوا يشكلون ثلاثة أحزاب متعارضة في تعابيرها الغامضة والملحدة التي لا تليق بأنبياء إسرائيل وتليق فقط (بالقرن المتكلم).

إن النصارى الذين عانوا الاضطهاد والذبح تحت حكم الأباطرة الرومان الوثنيين؛ لأنهم آمنوا بالله الواحد وبعبده عيسى لم يكونوا أسعد حظاً تحت حكم قسطنطين (المسيحي)؛ فقد حكم عليهم بموجب مرسومه الإمبراطوري بعذاب أشد؛ لأنهم رفضوا عبادة المسيح عبد الله، ورفضوا اعتباره مساوياً ومتحداً في الجوهر مع ربه وخالقه، أما كبار رجال الدين وكهنة المذهب الأريوسي (الموحّدون الذين كان يطلق عليهم اليهود النصارى الأوائل اسم قاشيشي أو مشمشاني) فقد أبعدوا عن مراكزهم، ونُفوا، وصودرت كتبهم الدينية، وأعطيت كنائسهم للأساقفة والقساوسة الثالوثيين، ووضع قسطنطين

فرق الجيش القاسية تحت تصرف الثالوثيين كي يضطهدوا أعداءهم مُقَدِماً خدمة كبيرة لمبدئهم، والخلاصة أن قسطنطين أنشأ نظام حكم إرهابياً ضد الموحدين استمر ثلاثة قرون ونصفاً إلى أن أسس المسلمون دعائم دين الله، وتسلموا السلطان والمجد والملكوت في الأراضي التي كانت تسيطر عليها الوحوش الأربعة.

هـ- يُتهم (القرن المتكلم) بأنه غيّر الشريعة وغير الأوقات (أي: أيام الأعياد والعطل) ويتضح ذلك فيما يأتي:

تغيير الشريعة: لقد خرق مرسوم قسطنطين بصورة سافرة وصيتين من شريعة موسى؛ الأولى حول وحدانية الله (لن يكون لك إله غيري) وقد تم خرقها بادعاء وجود ثلاثة أشخاص في ذات الله، وأن الله تعالى مولود من مريم، أما الوصية الثانية التي تحرم صناعة الأصنام والتماثيل بغرض العبادة فقد تم خرقها ليس فقط بصنع التماثيل بل بجعل المخلوق إلهاً وبعبادته، وإمعاناً في الكفر فقد تمت تسمية الخبز والنبيذ بالقربان المقدس على أنه (جسد الله ودمه).

تغيير الأوقات: بالنسبة لكل يهودي ملتزم ولنبي مثل دانيال الذي كان منذ شبابه شديد التقيد بالشريعة الموسوية، ما الذي يمكن أن يكون أكثر مقتاً من تغيير عيد الفصح اليهودي Passover (الذي يضحي فيه اليهود بحمل صغير) إلى عيد الفصح المسيحي Easter، الذي عد الحمل هو (حمل الرب) الذي تمت التضحية به على الصليب؟

أضف إلى ذلك إلغاء عطلة السبت وإحلال يوم الأحد مكانها مما يعد خرقاً صريحاً للوصية الرابعة من الوصايا العشر، صحيح أن الإسلام بعد ذلك ألغى يوم السبت، ولكن السبب أن اليهود أساؤوا استعماله بإعلانهم أن الله استراح في اليوم السابع كأن الله يتعب كما يتعب البشر.

لقد ألغى قسطنطين يوم السبت بمرسوم إمبراطوري، وحدد يوم الأحد مكانه؛ لأنهم زعموا أن عيسى خرج من القبر يوم الأحد علماً أن عيسى نفسه كان شديد التقيد بيوم السبت، وقد وبَّخ اليهود؛ لأنهم اعترضوا على القيام بأعمال الخير في ذلك اليوم.

و- الحرب التي أعلنها القرن الصغير (الإمبراطور الحادي عشر) ضد المؤمنين واستمرت لمدة ثلاثة قرون ونصف حتى ظهور الإسلام أدت إلى إضعافهم، ولكنها لم تقضِ عليهم.

فقد كان (الأريسيون) المؤمنون بوحدانية الله يقاومون في سبيل عقيدتهم، ويظهرون كلما سنحت لهم فرصة كما حدث في عهد قسطنطيوس (ابن قسطنطين) وفي عهد (يوليان) وغيرهما ممن كانوا أكثر تسامحاً معهم من قسطنطين.

أما النقطة المهمة الأخرى في رؤيا دانيال فهي التأكد من شخصية البرناشا (ابن الإنسان) الذي قضى على (القرن الرهيب)، وهو ما سنبحثه في الفصل التالي.

الفصل السادس

محمد ﷺ
هو المقصود بلقب ابن الإنسان

في الفصل السابق درسنا الرؤيا الرائعة للنبي دانيال (سفر دانيال 7)، وكيف رمزت وحوش أربعة متتالية لإمبراطوريات الكلدان فالفرس فالإسكندر الكبير فالرومان على التوالي، وهي الإمبراطوريات التي اضطهدت اليهود والنصارى الموحِّدين الأوائل، ثم درسنا كذلك كيف أن (القرن الحادي عشر) الذي نطق بالكفر اضطهد المؤمنين وبدّل الشريعة وأيام العطل والأعياد لا بدّ من أن يكون قسطنطين الكبير الذي أعلن في عام 325م مرسومه الإمبراطوري منادياً بعقيدة التثليث وتأليه المسيح.

وفي هذا الفصل ندرس شخصية (البرناشا ــ ابن الإنسان) الذي أتيَ به إلى الله العلي القدير فوق السحاب، وأعطي السلطان والمجد والملكوت، وكُلِّفَ بتدمير القرن الرهيب.

وقبل التأكد من شخصية (ابن الإنسان) يلزم أن نأخذ بالاعتبار الملاحظات الآتية:

أ - عندما يتنبأ رسول يهودي بأن (***جميع شعوب وأمم الأرض سوف تخضع للبرناشا***) (سفر دانيال 14/7)، وأن المملكة والسلطان تحت كل السماء سوف تعطى لشعوب المؤمنين (سفر دانيال 27/7)، فمن الواضح أن ذلك يعني الشعوب التي جاء ذكرها في (سفر التكوين 15/18-22) (***وفي ذلك اليوم عهد الله إلى إبراهيم: لِنَسْلِك أعطي هذه الأرض من نهر مصر الكبير إلى الفرات***) وليس غيرهم من الأمم.

ب- عبارة (شعوب المؤمنين) يقصد بها أولاً اليهود في ذلك الوقت ثم النصارى الموحدين الذين عانوا الاضطهاد بسبب إيمانهم الصحيح، وصمدوا حتى ظهور الـ(برناشا ابن الإنسان) الذي دمّر القرن.

جـ- لقد وجب بعد دمار القرن أن يسيطر المؤمنون على أمم الكلدان والفرس واليونان والرومان، وهي الأمم التي رمز لها بالوحوش الأربعة، والتي سبق أن غزت وسيطرت على جميع الأراضي المقدسة، وبالفعل فإن الأمم والشعوب جميعها - امتداداً من البحر الأدرياتيكي حتى الصين - قد خضعت للمسلمين الذين كانوا وحدهم أصحاب الإيمان الحقيقي.

د - كان اليهود شعب الله المختار حتى مجيء عيسى عليه السلام، أما بعد ذلك فلم يعد اليهود ولا النصارى يستحقون لقب (شعوب المؤمنين) حسب تعبير (سفر دانيال 27/7)؛ لأن اليهود

رفضوا رسالة عيسى، أما النصارى فقد أهانوه بشركهم، علاوة على أن اليهود والنصارى معاً لم يعترفوا ببعثة محمد خاتم الأنبياء والرسل.

وعلى ذلك نستطيع أن نثبت أن الـ(برناشا) ابن الإنسان الذي أرسل لتدمير القرن وسحق الإمبراطورية الرومانية لم يكن غير محمد، ومهما يبذلوا من محاولات لابتداع شخصية أخرى غيره للقيام بدور (البرناشا) فإن ذلك لا يعدو أن يكون تهافتاً للأسباب الآتية:

1 - يجب أن يكون واضحاً أن اليهود والنصارى لا يحملون اسماً صحيحاً لديانتهم، فالديانة الحقة لا تسمى باسم مؤسسها الثاني وهو النبي المرسل؛ لأن مؤسس الديانة الحقيقي هو الله وليس نبيه. ولذا فإن الاسم الصحيح للديانة التي أوحى الله بها إلى أنبيائه تدعى (الإسلام) مما يعني (صنع السلام) أي: أن يعيش المسلم في سلام مع نفسه ومع الآخرين، إن (المحمدية) ليست اللقب الصحيح للإسلام؛ لأن محمداً نفسه كان مسلماً ولم يكن (محمدياً)، إن اليهودية تعني ديانة ذرية يهوذا ولكن ماذا كان يهوذا نفسه؟ إنه لم يكن يهودياً ولم يتخذ لنفسه تلك الصفة، كما أن المسيح نفسه لم يكن مسيحياً.

إن موسى عليه السلام لم يسمع في حياته باسم الديانة اليهودية كما أن عيسى عليه السلام لم يسمع باسم الديانة المسيحية في

أثناء وجوده على هذه الأرض، وإن لغة دانيال قريبة من لغة القرآن، فهو يُكرر لفظي (الدين والدينونة) وبحسب شريعة هذا (الدين) قام الـ(برناشا) بتحطيم ديانة الشيطان، ومن المستحيل أن يكون المقصود بلقب (ابن الإنسان) أي شخص آخر غير محمد، إن الإسلام هو سيادة (السلام) الذي يقوم بِهِ العدل، ويقهر الظلم، ويظهر الصدق، ويدين البهتان والكذب. والملاحظ في اللغة الإنكليزية أنه يطلق على قاضي الصلح اسم قاضي السلام Justice of Peace وهذا تقليد للقاضي المسلم الذي يسوي الخصومات بمعاقبة المذنب والتعويض على البريء، وبهذه الطريقة يتحقق السلام؛ فأين ذلك من النصرانية وأناجيلها التي تمنع النصراني من اللجوء للقضاء مهما كان مظلوماً ومضطهداً (متّى 5/25-26،83-48).

2 - إنَّ برناشا (ابن الإنسان) هو محمد دون شك لكونه جاء بعد قسطنطين وليس قبله كالمسيح والأنبياء الآخرين، وقد تمكن معتنقو عقيدة التثليث؛ أتباع (القرن الرهيب) قسطنطين الكبير من اضطهاد الموحدين وقهرهم لمدة وصفتها نبوءة دانيال بأنها (زمان وأزمنة ونصف زمان) (دانيال 25/7)، أي: ثلاثة قرون ونصف القرن، تستأصل في نهايتها على يد البرناشا جميع القوى الوثنية وجميع ممالك الطغيان والشرك بالله (سفر دانيال 26/7)، ولذا من العبث الادعاء أَنَّ (يهودا المكابي) كان هو البرناشا، وأن القرن الرهيب كان أنطوخيوس

إيفانس خليفة الإسكندر. يزعمون أن أنطوخيوس عاش فقط ثلاث سنوات ونصف السنة، أو ثلاثة أيام ونصف اليوم بعد تدنيسه القدس.

فنحن نعلم أن أنطوخيوس الذي خلف الإسكندر الكبير على ملك سوريا لا يمكن أن يكون القرن الرهيب الحادي عشر للوحش الرابع؛ لأنه بحسب رؤيا دانيال كان واحداً من الرؤوس الأربعة للوحش الثالث.

ومن جهة ثانية فإن القرن الرهيب الناطق يشير إلى أن الشخص الذي تكلم بالكفر ثم غير الشريعة أيام الأعياد لم يكن وثنياً، ولكنه كان عارفاً بالله، ومع ذلك أشرك به عمداً وجعله ثالوثاً، في حين أن أنطوخيوس لم يفسد العقيدة اليهودية بالدعوة إلى التثليث، ولم يغير شريعة موسى ولا أيام الأعياد.

كما أنه من الضحالة إعطاء مثل هذه الأهمية إلى أحداث تافهة جرت بين ملك صغير في سوريا (أنطوخيوس إبيفانس) وبين زعيم يهودي ضئيل الشأن (يهودا المكابي) لا يمكن مقارنته مع البرناشا العظيم، ولا مع المهمة الكبرى الموكلة إليه، إن الرؤيا النبوية تصف البرناشا بأنه أعظم الرجال وأنبلهم على الإطلاق.

ولم يرد في العهد القديم مثل هذا التعظيم والتشريف لأي إنسان يستحق ذلك مثلما استحقه النبي محمد عليه الصلاة والسلام.

3 - هناك سببان رئيسان يجعلان من المستحيل أن يكون عيسى المسيح هو صاحب تلك المهمة الكبرى والمنزلة الرفيعة التي أعطيت لـ(ابن الإنسان):

أ - إذا كان المسيح مجرد نبي من الأنبياء، وقوّمنا بعثته من حيث نجاحها أو فشلها فهو من المؤكد دون منزلة محمد بقدر كبير، ولكن إذا اعتقد بعضهم أنه إله وثالث ثلاثة فعندئذ لا يوضع في صنف البشر، وتلك معضلة لا يمكن الخروج منها بحل؛ لأنه في كلتا الحالتين لا يمكن للبرناشا أن يكون عيسى.

ب- لو كان عيسى مكلفاً بسحق الوحش الرابع لما وافق على دفع الضريبة لقيصر، ولما أمكن للحاكم الروماني بيلاطس أن يجلده، بل على العكس كان عليه أن يهزم الرومان من فلسطين وينقذ بني إسرائيل منهم.

4 - لم يظهر في هذا العالم نبي مثل محمد انتمى إلى سلالة استمرت لزمن يقرب من (2500) عام، وحافظت على استقلالها، ولم تخضع مطلقاً لجهة أجنبية، كما لم يظهر رجل على وجه الأرض قدم من المبادئ والقيم والأخلاق لأُمته خاصة وللعالم عامة أكثر من محمد، ومن المستحيل التصور بأن مخلوقاً آخر غيره جدير بالتقدير والإجلال الذي صورته به تلك الرؤيا النبوية، لقد تطلع إليه النبي الكبير دانيال بتهيب

وإعجاب؛ لأنه تُوج سلطاناً على الأنبياء وقائداً للإنسانية جمعاء، ولا غرابة في أن النبي داود أطلق عليه لقب (سيدي) (المزمور110).

5 - لقد قوبل محمد عندما أسري به ليلاً إلى السماء بأعلى مراتب الشرف، وخُوّلت له القوّةُ لمحو الوثنية وسحق الكفر وإزالة نفوذه من جميع البلاد التي وهبها الله له ولشعبه ميراثاً أبدياً[1].

6 - بحسب قناعتي المتواضعة فإن رؤيا دانيال فيما يتعلق برحلة البرناشا فوق السحاب وحضوره أمام الله تعالى تتفق وتتطابق مع (المعراج) ليلة أسري بالنبي محمد إلى السماء، وهناك إشارات عدة في كل من كلام دانيال والحديث النبوي الشريف أدت بي إلى هذا الاعتقاد.

وقد ورد في القرآن الكريم أنه في ليلة الإسراء والمعراج أسرى الله بعبده من المسجد الحرام في مكة إلى المسجد الأقصى في القدس الذي بارك الله حوله، ذلك المسجد الذي كان خراباً في ذلك الزمن.

ويروى أن النبي الكريم صلى بالأنبياء إماماً في الحرم القدسي كما أنه عرج به من القدس إلى السموات السبع حيث رأى من آيات

(1) ليس لشعب و(أمة) محمد جنس أو لون مميز حتى يستعبد سائر الأجناس، كما هو الحال عند اليهود ومتطرفي النصارى من البيض.

ربه الكبرى، مما أوضح دانيال بعضه عندما روى حكم الله سبحانه وتعالى بحق الكافر.

وقد تكون الروح التي فسرت الرؤيا للنبي دانيال ملاكاً أو روح نبي؛ فقد دعاها (بالقدس)، وهي صيغة مذكر أو قدّوس (سفر دانيال 8/12-14)، لكم بلغت الغبطة بتلك الأرواح المقدسة للأنبياء والشهداء بعد أن عانت الاضطهاد المرير من الوحوش الأربعة عندما شهدت قرار الحكم بالموت يصدره العلي القدير ضد الثالوث قسطنطين بحضور خاتم الأنبياء الذي كلف بإبادة القرن الكافر.

ونحن كمسلمين نقر بأن الإسراء والمعراج كانا بالجسد والروح معاً مما يتوافق مع شهادة دانيال، وهو أمر لا يستحيل على قدرة الله سبحانه وتعالى.

وهنالك رؤيا مشابهة للقديس بولس عن رجل كان قد رفع إلى السماء الثالثة ومن ثم إلى الفردوس حيث سمع وشاهد ما لا يمكن وصفه، وتعتقد الكنائس وبعض المعلقين بأن بولس نفسه كان ذلك الرجل؛ لأن النص يوحي بذلك، وهم يعتقدون أن بولس لم يذكر ذلك صراحة من باب التواضع (2 الكورنثيين 12/1-4).

وكون بولس لم يفصح عن هوية الرجل الذي ذكره في رؤياه، وقوله إن الكلمات التي سمعها في الفردوس لا يمكن ترديدها ولا

يسمح لأي إنسان أن ينطق بها يؤكد أن بولس لم يكن ذلك الرجل، فهو لم يكن متواضعاً بدليل أنّ رسائله Epistles كانت تتمحور حول ذاته، وقد تبجح أيضاً أنه عنّف بطرس مواجهةً، ونحن نعرف من كتاباته إلى (غالاطيه) وإلى الرومان كم كان متحيزاً إلى يهوديته ومتحاملاً ضد هاجر وولدها إسماعيل.

إن ذلك الشخص العظيم الذي شاهده في رؤياه لا يمكن أن يكون غير ذلك الشخص الذي رآه دانيال أيضاً، وهو محمد، غير أنه لم يتجرأ على أن يذكر الكلام الذي سمعه؛ لأنه كان يخاف اليهود من جهة، ومن جهة أخرى كان يخشى أن يناقض نفسه بعد أن مجّد نفسه كثيراً بكلامه عن الصليب والمصلوب، لقد اعترف بولس أن الشيطان كان ينفخ في رأسه (2 الكورنثيين 7/12) مما منعه من إظهار الحقيقة بأن الشخص الذي رآه لم يكن سوى البرناشا ابن الإنسان محمد الذي رآه دانيال قبله بستة قرون، وكلما فكر المرء ملياً في تعاليم بولس تضاءل الشك عنده في أنه كان أنموذجاً مطابقاً لقسطنطين الكبير.

والنتيجة أنني أسمح لنفسي باستخلاص العبرة من هذه الرؤيا الرائعة للنبي دانيال وأهيب بغير المسلمين أن يعتبروا بالمصير الذي انتهى إليه الوحوش الأربعة، إن الله وحده هو الإله الحق، وإن المسلمين وحدهم توصلوا للإيمان بوحدانيته المطلقة واهتدوا بنبوة محمد سيد وخاتم الأنبياء.

الفصل السابع

الملك داود يدعوه (سيدي)

يورد سفر (صموئيل) و(المزامير) من العهد القديم كثيراً من قصص داود ومنها أنه قذف في شبابه حجراً صغيراً إلى جبهة البطل الفلسطيني جالوت (Goliath)، فقتله مما أدى إلى انتصار جيش إسرائيل، وقد كافأه الملك طالوت (شاؤول Saul) أول ملوك بني إسرائيل على ذلك بأن وافق على تزويجه من ابنته ميشال.

وعند وفاة طالوت تولى داود الحكم، وكان النبي صموئيل قد مسحه قبل ذلك بالزيت تمهيداً لحكمه، وقد امتد حكم داود بضع سنوات في الخليل، ثم استولى على القدس من اليبوسيين، وجعلها عاصمة ملكه، وقد أطلق على المرتفعين القائمين في القدس اسم (موريا) و(صيون) وهاتان الكلمتان تؤديان المعنى نفسه لكلمتي المروة والصفا في مكة المكرمة، وتعني كلمة المروة (مكان رؤيا الرب) وكلمة الصفا (الصخر أو الحجر). فقد طالت مدة حكم داود أربعين عاماً اتَّسمت بالحروب والأحزان العائلية، وهناك روايات متضاربة حوله تُعزى إلى مصدرين مختلفين.

لم يرد في القرآن الكريم (سورة ص) ما يؤيد الخطيئة المنسوبة لداود في حق جنديِّه (أوريا) وزوجه (باتشيبا) (سفر صموئيل الثاني، الفصل 11). ومن عظمة القرآن أنه ينزه الأنبياء عن الفواحش، فهو لا ينسب إليهم - كما فعلت التوراة المحرّفة - جرائم وآثاماً كاتهام داود بالزنا مما يعاقب عليه بالموت حسب شريعة موسى، تلك التهمة التي يصعب أن نعزوها لشخص عادي ناهيك عن نبي مرسل.

وقد ذكر الرازي في تفسيره أن معظم العلماء يرفضون هذه التهمة على أنها افتراء، وأن كلمات الاستغفار في نص الآيتين (24-25 من سورة ص)[1] لا تدل على ارتكاب داود للإثم؛ لأن الاستغفار يعني أيضاً طلب الحماية وإصلاح الأمور، ذلك أن داود على الرغم من كونه حاكماً عظيماً فإنه لم يفلح في إحكام السيطرة على أعدائه.

انقسمت مملكة داود بعد ابنه سليمان إلى دولتين كثيراً ما كانتا تتحاربان، فقد كانت الأسباط العشرة التي كونت مملكة إسرائيل (السامرة) معادية لسلالة داود التي كونت مملكة (يهوذا)، ولم تقبل الأسباط العشرة أي جزء من العهد القديم سوى الأسفار الخمسة Pentateuch، والسبب نجده في النسخة السامرية

(1) ﴿وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ﴿٢٤﴾ فَغَفَرْنَا لَهُ ذَلِكَ وَإِنَّ لَهُ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَآبٍ ﴿٢٥﴾﴾ (سورة ص: 24-25).

للأسفار الخمسة الأولى من العهد القديم؛ إذ لا تشتمل على كلمة واحدة أو نبوءة واحدة عن سلالة داود بما في ذلك الأقوال المنسوبة لكبار الأنبياء مثل إلياس واليسع وغيرها ممن عُرفوا في إسرائيل (السامرة) خلال حكم ملوك إسرائيل الطغاة.

إلا أنه بعد سقوط مملكة إسرائيل ونفي الأسباط العشرة إلى بابل بدأت تظهر النبوءات في (يهوذا) بقدوم أمير من سلالة داود يعيد جمع شمل الأمة ويخضع أعداءها، وهنالك العديد من الأقوال المبهمة في هذا الصدد منسوبة إلى الأنبياء المتأخرين مما زود قساوسة الكنيسة فيما بعد بنشوة كبيرة على الرغم من أنه لم يكن لهذه الأقوال أي علاقة بعيسى المسيح، وسوف أذكر بإيجاز مثالين من هذه النبوءات:

النبوءة الأولى: في (سفر أشعيا 14/7) : إن فتاة (ألماه بالعبرية) حامل سوف تلد ولداً اسمه عمانوئيل، وكلمة (ألماه) العبرية لا تعني عذراء كما اعتاد اللاهوتيون النصارى تفسيرها لكي يشيروا بها إلى مريم العذراء، ولكنها تعني امرأة أو فتاة في سن الزواج، في حين أن الكلمة العبرية التي تدل على معنى عذراء هي (بتولة) أما اسم (عمانوئيل) فهو يعني (الله معنا) وثمة مئات من الأسماء العبرية التي تنتهي أو تبدأ بمقطع (أيل)، ومن المؤكد أنه لم يدر في فكر أشعيا أو الملك آحاز (ملك يهوذا عندئذ) أو أي يهودي إطلاقاً أن الطفل الوليد سيكون هو (الله) بنفسه (معنا)، وإنما كانوا

يعتقدون أن ذلك سيكون اسماً مباركاً للطفل الوليد؛ إذ كان آحاز في خطر والقدس تحت الحصار، فأعطيت له علامة الفرَج وهي الفتاة التي ستلد ولداً اسمه عمانوئيل، وبالطبع لا يمكن أن تكون الفتاة مريم العذراء التي ستظهر بعد أكثر من سبعمائة عام.

إن تلك البنوءة البسيطة بأن طفلاً اسمه عمانوئيل سيولد خلال حكم آحاز قد أساء فهمها كاتب إنجيل متى (متى 23/1) على الرغم من أن الملاك جبريل أطلق على ابن مريم عليهما السلام اسم عيسى (متى 21/1)، ولم يطلق عليه اسم عمانوئيل، وهكذا فإن اعتبار اسم عمانوئيل برهاناً على عقيدة التجسيد المسيحية ليس إلا مغالطة كبرى.

وكمثال آخر إليك النبوءة الواردة في (سفر زكريا 9/9) (ابتهجي يا بنت صهيون، واهتفي يا بنت القدس، هو ذا ملكك قادم إليك، سوف يكون تقياً وديعاً يأتي بالخلاص ويمتطي حماراً ابن أتان). في هذه العبارة الشعرية يود الكاتب ببساطة أن يصف الحمار الذي يمتطيه الملك بقوله: إنه كان حماراً فتياً مما يوصف أنه ابن الأتان.

لكن إنجيل متى نقل هذه العبارة على النحو الآتي (متى 5/21) (قولوا لابنة صهيون: هو ذا مليكك يأتيك وديعاً راكباً على أتان وعلى جحش ابن أتان).

وليس مهماً أن يكون الشخص الذي كتب العبارة المذكورة أعلاه قد آمن أو لم يؤمن حقيقة بأن عيسى لدى دخوله الظافر إلى

القدس كان يمتطي أتاناً وابنها معاً في وقت واحد، كمعجزة يحترمها من المعجزات، إلا أن الغريب أن معظم الآباء النصارى آمنوا بذلك على الرغم من أن وصفاً كهذا هو أقرب إلى الهزل منه إلى جدية الموكب الملكي المهيب، غير أن لوقا كان حذراً، ولم يقع في خطأ متى، فهل يعقل أن يكون الكاتبان قد استمدا الإلهام من الروح القدس نفسه؟

بعد عودة اليهود من السبي البابلي تنبأ زكريا في القدس بمجيء ملك وديع ومتواضع يركب حماراً يأتي بالخلاص ويعيد بناء بيت الله، وقد تنبأ زكريا بهذا عندما كان اليهود على عداوة مع الشعوب المجاورة، وهم يحاولون إعادة بناء المعبد ومدينة القدس المخربة؛ إذ كان العمل في بناء المعبد متوقفاً بانتظار أوامر داريوس ملك الفرس، ومع أنه لم يظهر بعد القرن السادس قبل المسيح (أي بعد عودة اليهود من الأسر البابلي) أي ملك يهودي بمعنى الكلمة إلاّ أن اليهود تمتعوا بحكومات مستقلة ذاتياً ضمن السيادة الأجنبية، ومن الواضح أن زكريا قصد في نبوءته خلاصاً مادياً وفورياً لليهود، وليس خلاصاً مؤجلاً لمدة خمسمائة وعشرين عاماً بانتظار أن يركب عيسى المسيح حماريه في آن واحد، ويدخل القدس التي أصبحت عندئذ مدينة كبيرة غنية، وبها المعبد الرائع، لكي يقبض عليه اليهود أنفسهم، ويسلموهُ لسادتهم الرومان كما تقول لنا الأناجيل الحالية، إن هذا لم يكن ليمثل أي عزاء لليهود المقهورين

الذين كانوا في القدس المخربة يحيط بهم الأعداء من كل جانب، ولذلك فإنه يفهم من كلمة ملك أنه قد يكون أحد كبار قادتهم مثل زيروبابل Zerobabel أوعزرا (عزير) أو نحميا.

إنني أقصد من هذين المثالين أن أبين لقرائي كيف قام الأحبار والرهبان بتضليل النصارى بإعطائهم تفسيرات ومعانٍ غبية للنبوءات الموجودة في الكتب اليهودية المقدسة.

والآن إلى نبوءة داود موضوع هذا الفصل التي يقول فيها: (قال يهوه «Yahwah» لسيدي «Adon»: اجلس على يميني، حتى أجعل أعداءك مسنداً لقدميك).

وردت نبوءة داود هذه في المزمور (110) واقتبسها كل من متى (22/ 44)ومرقص (36/12) ولوقا (42/20)، وفي جميع اللغات كتبت على النحو الآتي: (قال الرب لربي) بدلاً من (قال يهوه لسيدي) ومغزى ذلك أنه إذا كانت كلمة الرب الأولى تعني الله، فإن كلمة ربي الثانية تعني الله أيضاً، أي: المتكلم هو الله والمخاطب هو الله أيضاً، لذلك فإن داود يعرف ربين اثنين!؟ وعلى الرغم من غرابة هذا المنطق فقد وجد الآباء النصارى حجة ملائمة لعقيدتهم! فأي من هذين الربين هو إله داود؟ لو قال داود فعلاً: (قال الرب لربي) لجعل من نفسه أضحوكة ليس فقط لأنه اعتقد بإلهين اثنين بل أيضاً لأن رب داود الثاني قد التجأ إلى ربه الأول الذي أمره أن يجلس إلى يمينه حتى يجعل من أعدائه مسند قدم له.

إن هذا الخلط يجعل من المحتم أن يعرف المرء توراته أو إنجيله أو قرآنه باللغة الأصلية التي كتب بها؛ لكي يتمكن من الفهم الصحيح للدين.

لقد كتبت الكلمات العبرية الأصلية وهي (يهوه Yahwah) و(أدون Adon) لتفادي أي غموض وسوء فهم في معناها، إن مثل هذه الأسماء في الكتب المقدسة كان يجب أن تترك على حالها ما لم يكن هناك كلمة معادلة لها تماماً في اللغة التي تترجم إليها، إن الكلمة الرباعية الحروف (ي هـ و ه) التي تلفظ (يهوفا) وصارت الآن تلفظ (يَهْوه) هي أحد أسماء الأعلام لله تعالى، ويقدسها اليهود لدرجة أنهم عندما يقرؤون كتبهم المقدسة فإنهم لا يلفظونها بل يقرؤون أدوني Adoni بدلاً منها، أمّا الاسم الآخر (إلوهيم) فيلفظونه في حين أن اسم (يهوه) لا يلفظونه قط. أما السبب الذي من أجله يُحدث اليهود هذا التمييز بين هذين الاسمين لله نفسه فهو مسألة قائمة بذاتها وخارج نطاق بحثنا، غير أنه يذكر بهذه المناسبة أن اسم (يهوه) لا يستعمل مع ضمائر متصلة قط، ويبدو أنه اسم خاص بالعبرية للذات الإلهية باعتباره الإله القومي لشعب إسرائيل، أما (إلوهيم) فهو أقدم اسم معروف لجميع الساميين. وكثيراً ما تستعمل الكلمة الرباعية (يهوه) جنباً إلى جنب مع (إلوهيم)، والصيغة العربية (الله ربنا) توازي الصيغة العبرية (يهوه إلوهيم).

أما الكلمة الأخرى (أدون Adon) فتعني الآمر أو السيد، ولذلك فإن الجزء الأول من النبوءة يجب أن يقرأ هكذا (قال الله لسيدي).

لقد كان داود بصفته ملكاً هو السيد والآمر على كل يهودي، وسيد المملكة كلها، فمن هو سيده إذن؟ لا يمكننا أن نتصور أنه كان يدعو بـ(سيدي) أي نبي متوفَّى كإبراهيم أو يعقوب الذين كان يستخدم لهم كالعادة لقب (الأب)، ومن المفهوم أيضاً أنه لا يمكن لداود أن يدعو أحداً من سلالته (سيدي)؛ لأن اللقب المعقول سيكون (بُنيّ)، ولذا فإنه لا يتفق أن يكون سيداً لداود بعد الله إلا من هو أشرف الخلق وأنبلهم.

ومن الفطنة أن نفكر بأن الله سبحانه وتعالى قد اختار رجلاً له من الصفات ما يجعله أنبل البشر وأحقهم بالثناء وأولاهم بالاقتداء، ولا شك في أن الحكماء والأنبياء عرفوا هذه الشخصية الكريمة منذ القدم ودعوها (سيدي) كما دعاها داود.

وقد استنتج أحبار اليهود ومفسرو العهد القديم أن هذا التعبير يعني المسيح المنتظر المفترض أن ينحدر من نسل داود، وهو ما قالوه لعيسى المسيح عليه السلام، ولكنه صحح اعتقادهم وأفادهم بأنه ليس هو المخلص المنتظر؛ إذ أجابهم عن أسئلتهم بقوله (إذا كان داود يدعوه سيدي فكيف يكون ابنه؟) فلم يجدوا جواباً لذلك، (متّى 44/22) و(مرقص 36/12) و(لوقا44/20)، وقد قطع كتاب الأناجيل تتمة هذا الحوار فجأة دون مزيد من الإيضاح مما لا يليق

بهم ولا بالمعلم؛ لأنه من المؤكد أن المعلم قد حل الإشكال الذي أثاره عندما وجد أنه لا الحواريّونَ ولا غيرُهم من الحضور استطاعوا أن يعرفوا من يكون (السيد) هذا؟

وعندما قال عيسى: إن (السيد) أو (الأدون) لا يمكن أن يكون ابناً لداود فقد استثنى نفسه من هذا اللقب، وهذا الإيضاح حاسم ويجب أن ينبه النصارى لكي ينظروا للمسيح نظرة واقعية، وهي أنه عبد الله ورسوله، وأن يرفضوا الطابع الإلهي الذي نُسب إليه والذي لم يدّعِه لنفسه قط.

ولا نستطيع أن نتصور معلماً مخلصاً يرى طلابه عاجزين عن الإجابة على سؤاله ويبقى صامتاً إلا إذا كان مثلهم جاهلاً وعاجزاً عن الإجابة، ولكن عيسى عليه السلام لم يكن بالمعلم الجاهل، وهو قطعاً لم يترك المسألة دون حل، غير أن أناجيل الكنائس لم تذكر جواب عيسى على السؤال (من هو سيد داود)؟ في حين أن إنجيل برنابا قد أورده، وقد رفضت الكنائس هذا الإنجيل؛ لأن لغته أكثر توافقاً مع الكتب المنزلة؛ ولأنه يعبر بوضوح عن طبيعة رسالة عيسى المسيح، وأهم من ذلك أنه يسجل بدقة كلمات عيسى عن محمد، ومن السهل الحصول على نسخة من هذا الإنجيل الذي نجد فيه جواب عيسى الذي قال فيه: (إن العهد بين الله وإبراهيم كان موضوعه إسماعيل، وإن أكثر الناس مجداً وحمداً سيكون من سلالة إسماعيل وليس من سلالة إسحاق وداود)، ويقال إن عيسى

تكلم مراراً عن محمد؛ لأنه التقى روحه في السماء، وسوف تتاح لي الفرصة إن شاء الله للكتابة عن هذا الإنجيل.

وليس من شك في أن رؤيا دانيال التي تنبأ بالبرناشا العظيم (محمد) قد تطابقت مع نبوءة داود كما تطابقت أيضاً مع رؤيا النبي أيوب (أيوب 25/19) الذي تنبأ بالمخلّص الذي ينقذ الناس من سلطة الشيطان، وسوف نرى بأنّ محمداً كان هو المقصود بكلام داود عندما قال (سيدي).

يوصف النبي محمد عادة بأنه سيد المرسلين أي (أدون Adon) الأنبياء، وإن الحجج التي وردت في العهد القديم مصداقاً لذلك هي من الوضوح بحيث لا يسعُ المرء إلا أن يدهش من جهل أو مكابرة أولئك الذين يرفضون أن يفهموا ويذعنوا للحق.

1 - إن أعظم نبي وسيد (أدون) ليس بالفاتح العظيم ولا مكتسح البشرية ولا معتكفاً يقضي حياته في كهف أو دير من أجل تخليص نفسه فقط، ولكنه ذلك الذي يقدم الخير والخدمة للبشر، فينير لهم طريق المعرفة بالله، ويقضي على سلطة الشيطان ومؤسساته، لقد سحق محمد رأس الأفعى، ومن أجل ذلك يطلق القرآن على الشيطان اسم (إبليس) أي: المنكسر أو المسحوق، وقد طهر الكعبة وبلاد العرب من الأصنام، وطهر فلسطين وسائر البلاد التي زارها إبراهيم من الوثنية والشرك

وسلطة الشيطان، ونشر النور في أنحاء الدنيا حتى إنَّ أعماله وإنجازاته العظيمة لم يضاهها شيءٌ في تاريخ البشرية.

2 – لقد أكد عيسى المسيح نفسه أنه لم يكن سيداً لداود كما بيّن أن المخلّص المنتظر لن ينحدر من نسل داود، وهكذا فإنه فلم يبقَ سوى محمد من بين جميع الأنبياء سيداً لداود، وعندما نقارن بين الثورة الدينية التي حققها حفيد إسماعيل العظيم في العالم وبين ما حققه آلاف الأنبياء مجتمعين نخرج بنتيجة تفرِضُ نفسها، وهي أن محمداً وحده قد استحق لقب (أدون) سيد الأنبياء والمرسلين.

3 – كيف عرف داود أن (يهوه) قال لسيده (أدون): (اجلس عن يميني حتى أجعل أعداءك مسنداً لقدميك)؟ ومتى سمع داود كلام الله هذا؟ لقد أعطانا المسيح الجواب على ذلك بقوله: (إنّ روح داود كتبت ذلك) ذلك أن داود رأى محمداً كما رآه دانيال (سفر دانيال7)، وكما رآه بولس (2 الكورنتيين 12)، وكما رآه آخرون كثيرون. وبالطبع إن لغز (اجلس عن يميني) غامض بالنسبة لنا، ومع ذلك نستطيع أن نستنتج باطمئنان أن هذا التكريم الخاص لمحمد أي: شرف جلوسه عن يمين عرش الله ورفعه إلى مصاف سيد الأنبياء والخلائق أجمعين قد حدث ليلة الإسراء والمعراج.

4 – إن اعتراض الكنيسة الرئيس الوحيد على بعثة محمد وتفوقها

هو تنديدها بتعاليم الثالوث، ولكن العهد القديم لا يعرف إلهاً سوى الله الأحد، إن سيد داود لم يجلس على يمين إله ثلاثي، ولكنه على يمين إله واحد.

الفصل الثامن

السيد ورسول العهد

يطلق على آخر أسفار العهد القديم اسم (ملاخي) ما يعني (ملاكي) أو (رسولي)، والكلمة بالعبرية (ملاخ) كالعربية (ملاك) وكاليونانية (أنغيلوس Anghelos) التي اشتق منها الاسم الإنكليزي (Angel) وتعني المرسَل المكلَّف بإبلاغ رسالة أو خبر.

غير أنه ليس معروفاً من هو (ملاخي) المشار إليه في السفر كما لا نعرف حقبة ظهوره ونبوءته في التاريخ اليهودي، إذ لا يزودنا سفر ملاخي ولا أي جزء آخر من أجزاء العهد القديم بهذه المعلومات. يبدأ سفر ملاخي بالكلمات الآتية: ***(خطاب يهوه إله إسرائيل على يد ملاخي)*** ويحتوي على أربعة فصول قصار.

والخطاب موجَّه إلى يهود القدس الذين كانوا يقدمون على المذابح أحقر أنواع الأضاحي والقرابين من الغنم والماشية، العمياء منها والعرجاء، ويهملون دفع الأعشار، وإذا اختاروا دفعها فهي من أسوأ الأصناف، ولم يكن الكهنة يكرِّسون وقتهم لأداء واجبهم؛ لأنه يستحيل عليهم الأكل من شرائح لحم البقر وقطع الضأن المشوية

المأخوذة من الأضاحي العجفاء كبيرة السن مشلولة القوائم، ولم تكن تكفيهم الأعشار الضئيلة على أي حال، وأما (يهوه) الذي يخاطب هؤلاء القوم المتعذر إصلاحهم فإنه يهدد حيناً، ويمتنع عن الوفاء بالوعود حيناً آخر، ويتذمر أحياناً، ويبدو أن النبي ملاخي قد أورد هذه النصوص في أوائل القرن الرابع قبل المسيح عندما كان شعب إسرائيل يتأفف من يهوه، وكان من عادة اليهود قولهم: (إن مائدة الرب يهوه بغيضة ووجبات الأكل التي يقدمها مزرية) (ملاخي 12/1) كما كانوا يقولون: (كل من يفعل الشر فهو صالح في نظر يهوه وهو يُسرّ به، أو: أين إله القضاء؟) (ملاخي 17/2).

يرجع سفر ملاخي إلى ما بعد حقبة الأسر البابلي، وقد كتبت بأسلوب عبري جيد، ولكن يستحيل الادعاء بأن هذا السفر قد وصل إلينا سليماً دون تحريف، وهناك العديد من الجمل المشوهة فيه يكاد يستحيل فهم المعنى المراد منها.

وموضوع بحثنا هذا الفصل هو النبوءة الشهيرة في سفر ملاخي التي تقول: (***ها أنذا أبعث برسولي، وسوف يمهد السبيل أمامي، وسوف يأتي فجأة إلى هيكله السيد الذي تبحثون عنه، ورسول العهد الذي ترغبون، هو ذا يأتي، هكذا يقول رب الجموع***) (ملاخي 1/3).

هذه واحدة من النبوءات المسيحانية الشهيرة عن مجيء المخلّص المنتظر، غير أن جميع القديسين والآباء والباباوات والبطاركة والقسس والرهبان حتى أطفال مدارس الأحد سيقولون لنا: إن

كلمة (رسولي) المذكورة في النص تشير إلى يحيى المعمدان، وإن عبارة (رسول العهد) التي حرفتها نسخهم الوطنية إلى (ملاك العهد) تشير إلى عيسى المسيح.

إن معرفة المعنى الصحيح لهذه النبوءة أمر في غاية الأهمية؛ لأن الكنائس المسيحية اعتقدت أن المقصود بها شخصان مختلفان، وسبب ذلك الخطأ الكبير الذي وقع فيه القديس متّى؛ ذلك أن من خصائص إنجيله أنه حرص على إثبات تحقق نبوءات العهد القديم فيما يتعلق بكل حدث تقريباً من أحداث حياة عيسى المسيح، وفي سبيل ذلك لم يكترث بأن يقع في التناقضات، ولم يدقق في اقتباسه من الكتب العبرية المقدسة، ومن الواضح أنه لم يكن متمكناً من قواعد لغته، وفي مقالة سابقة أشير إلى أحد أخطائه المهمة حول الحمار المفترض أن يمتطيه عيسى المسيح.

كل ذلك مما هو في غاية الخطورة، فهو يمس صحة الأناجيل ومصداقيتها، فهل يُعقل أن يجهل الحواري متّى حقيقة نبوءة ملاخي (3/1) إلى درجة تجعلنا نضع إنجيله موضع التساؤل؟ وماذا نقول عن مؤلف الإنجيل الثاني القديس مرقس الذي ينسب العبارة الموجودة في ملاخي إلى أشعيا؟ (مرقس 2/1)! كما لو أن متّى (1/11-15) قد نسب إلى عيسى قولاً نقله لوقا أيضاً (لوقا 18/7-28)، وهو أن عيسى أعلن على الملأ أن يحيى كان أكثر من نبي، وأنه هو الذي كتب عنه:

(إنني مرسل ملاكي أمام وجهك، وإنه سوف يمهد طريقك أمامك) وإنه (لم يوجد بين من ولدتهم النساء من هو أعظم من يحيى، لكن أقلّ من في ملكوت السموات أعظم منه)، إن تحريف نص ملاخي واضح ومتعمد؛ فالنص الأصلي يقول لنا: إن يهوه سَبئوث (أي إله الجموع) هو المتكلم، وإن المؤمنين هم الشعب المخاطب، وهذا واضح من كلمات (الذي تبحثون عنه.. والذي ترغبون) ولكن الأناجيل حرفت النص بأن حذفت ضمير المتكلم واستبدلت به المخاطب (أمامك) و(وجهك) لكي تبرهن لليهود أن الله كان يخاطب عيسى المسيح (ها أنا أرسل أمام وجهك ملاكي الذي يهيئ طريقك أمامك) (متى10/11)، ويرغب متّى أن يبين أن هذا الملاك أو الرسول كان يحيى، فينقل على لسان عيسى قوله: إن يحيى فوق كل نبي، وأعظم من ولدته امرأة، ومع هذا فإن أصغر من في ملكوت السماء ـ التي يقصد أن يكون عيسى ملكها ـ هوأعظم من يحيى.

إنني لا أصدق ولا لثانية واحدة أنه يمكن لعيسى أو لأي من حوارييه استخدام عبارات كهذه لتحريف كلام الله، ولكنه أحد الرهبان المتعصبين أوالأساقفة الجهلة، وقد زيّف هذا النص، ووضع على لسان عيسى هذه الكلمات التي لا يمكن أن تصدر عن أي نبي من الأنبياء.

إن الفكرة التقليدية القائلة: إنَّ الرسول المكلف بتمهيد الطريق أمام (السيد) و(رسول العهد) هو خادم وتابع له، والاستنتاج أن

هناك نبوءة بشخصين مختلفين، كل ذلك سببه الجهل بشخصية ذلك الرسول وأهمية رسالته وضخامة العمل المسند إليه، لنمعن النظر إذن في هذه النبوءة وحقيقة تفسيرها:

1 - يجب أن نفهم جيداً أن الرسول بشر مثل غيره، وأنه ليس ملاكاً أو كائناً فوق البشر، كما أنه لم يكن مرسلاً لتمهيد الطريق أمام رسول آخر يسمى (السيد) أو (رسول العهد)، ولكنه مكلف بتأسيس وإقامة دين قويم سليم صالح، ومكلف أيضاً بإزالة العقبات كافة والوسطاء بين الله ومخلوقاته، ومن البدهي أن هذا الرسول الرفيع الشأن لم يكن قادماً لإصلاح الطريق أو الدين من أجل مجموعة من اليهود فقط، ولكن من أجل إقامة دين عام وثابت للناس كافة، ومع أن الديانة اليهودية تقول بوجود إله واحد حق، إلا أن مفهوم الله عند اليهود مشوّه؛ فهم يظنون أنه إله قومي لشعب إسرائيل فقط، كما أن كهنوتهم وطقوسهم وعدم وجود عقيدة قاطعة لديهم عن القيامة ويوم الحساب والحياة الآخرة ونقاط نقص أخرى كثيرة غير ذلك كلها تدل على عدم صلاحية عقيدتهم لكل العصور والشعوب والأجناس.

أما النصرانية فإنَّ انحرافها لدرجة اعتقادها بالخطيئة الأصلية وبتجسيد الإله وبثالوث من الآلهة وطقوسها السبعة عديمة المعنى، ثم عدم وجود إنجيل حقيقي بين أيدينا، كل ذلك لم ينفع البشرية

في شيء، بل على العكس سبّب الانقسامات بين الطوائف والكراهية والحقد بين بني البشر.

إذن كان الرسول مكلفاً بتقويم هذين الدينين وإقامة دين إبراهيم وإسماعيل القديم ودين الأنبياء الآخرين على أسس تعاليم بسيطة ومباشرة تصلح للبشر أجمعين، ذلك هو أقصر الطرق على مر العصور بلا كهنوت ولا تدخل من الوسطاء والأدعياء.

وفوق كل شيء كان على الرسول أن يأتي فجأة إلى مسجده سواء أكان في القدس أم في مكة، وكان عليه أن يقتلع جذور الوثنية من تلك البلاد، ليس بتحطيم الأصنام والأنصاب فحسب، بل وبتعليم المشركين عقيدة التوحيد والإيمان بالإله الحق.

إن إنجاز هذا العمل العظيم كان بمثابة تحقيق منحى فكري جديد وتأسيس دين عالمي شامل يدعو إلى إلغاء الوساطة بين الله والعباد، فلا قسيس ولا قديس ولا سر مقدس، وقد تحقق ذلك على يد الرسول (محمد المصطفى ﷺ).

2 - إن يحيى لم يكن النبي الذي تنبأ عنه ملاخي، وذلك واضح لأسباب عدة، فمن جهة نلاحظ أن القصص التي ترويها الأناجيل الأربعة عن يحيى متضاربة جداً، ولكنها تتفق على نقطة واحدة، وهي أن يحيى لم يمهد طريقاً قط؛ إذ لم يوحَ إليه كتاب مقدس، ولم يؤسس ديناً جديداً يصلح الدين القديم، ويُروى أنه ترك أبويه ومنزله عندما كان يافعاً وعاش في البرية

على العسل والجراد حتى ناهز الثلاثين من عمره، ثم ظهر للجماهير على ضفاف الأردن حيث اعتاد أن يعمّد التائبين الذين كانوا يجيئون إليه معترفين بخطاياهم، ومن المدهش أن متّى لم يعرف شيئاً عن علاقة يحيى بعيسى أو أنه عرفها ولم يحفل بنقلها، أما لوقا فقد كتب في إنجيله عن الطاعة التي قدمها يحيى لعيسى عندما كان كل منهما جنيناً في رحم أمه (لوقا 1/39-46) كما ذكر أن عيسى تعمد كغيره من مياه الأردن على يد يحيى!

ويروى أن يحيى قال: ***(يأتي بعدي من هو أقوى مني، الذي لست أهلاً أن أنحني وأحل رباط حذائه)*** (مرقص 1/7)، وحسب ما هو مذكور في الإنجيل الرابع فيفترض أن يحيى قال عن عيسى: (إنه حمل الله الذي يمسح خطايا العالم) (يوحنا 1/29) ولو كان ذلك صحيحاً فلماذا احتاج يحيى وهو في السجن إلى أن يبعث إلى عيسى مستوضحاً عن حقيقة شخصيته بقوله: (هل أنت النبي الموعود المفترض أن يأتي أم ننتظر واحداً غيرك؟) (متّى 11/3)، وقد استشهد يحيى في السجن؛ لأنه وبّخ الملك هيرودس على زواجه بزوجة أخيه.

وهناك وصف لموعظة يحيى في الفصل الثالث من إنجيل متّى أعلن فيها اقتراب مملكة السماء وقدوم الرسول العظيم الذي سوف يُعمّد المؤمنين ليس بالماء ولكن (بالنار والروح القدس).

والعجيب أن اليهود لم يقبلوا يحيى كنبي، والعجيب أيضاً أن إنجيل برنابا لا يأتي على ذكر يحيى، أما العبارة التي يقال إنَّ يحيى تحدث بها عن عيسى، فإن برنابا ينسبها إلى عيسى متحدثاً بها عن محمد رسول الله، وقد ذكر القرآن معجزة ميلاد يحيى، لكنه لم يُشر إلى التعميد الذي كان يمارسه.

ولو صحّ أن يحيى المعمدان هو الرسول الذي بعثه الله لتمهيد الطريق أمام عيسى المسيح، ولو كان يحيى هو المبشِّر بعيسى والتابع له، فلا معنى لأن يشغل نفسه بتعميد الجماهير في مياه الأردن؛ إذ كان من واجبه أن يتبع عيسى فوراً وأن يلازمه عندما رآه وعرفه، ولكنه لم يفعل شيئاً من هذا، بل على العكس فإنه عندما سُجن كان لا يزال في شك من أمر عيسى، فبعث إليه يسأله: ***(هل أنت الرسول الموعود المفترضُ أن يأتي، أم ننتظر واحداً غيرك؟)*** (متّى 3/11).

3 - إن يحيى المعمدان لم يكن النبي إيليا Elijah (على النقيض من القول المنسوب إلى المسيح) ذلك أن ملاخي يتكلم عن «إيليا» يفترض قدومه قبل يوم القيامة ببعض الوقت، وليس قبل ظهور رسول العهد (ملاخي 4/5-6)، وحتى لو قال المسيح إن يحيى كان هو إيليا فإن الناس لم يعرفوه، وقد يكون ما قصده عيسى أن الاثنين متشابهان في حياتهما الزاهدة وإقبالهما على الله وشجاعتهما في نصح وتوبيخ الملوك والزعماء المنافقين.

ولن أستطرد في مناقشة ادعاء الكنائس المتهافت بأن يحيى كان الرسول القادم لتهيئة الطريق أمام عيسى، ولكن يَحْسُنُ أن أضيف أن يحيى لم يرفض شيئاً ولو يسيراً من شريعة موسى، ولم يضف إليها شيئاً. أما المعمدانية التي مارسها فهي (المعموديثا) اليهودية القديمة أو الوضوء، ولا يمكن أن نعدّ الغسل أو الوضوء ديناً جديداً أو طريقة جديدة وهو ما بلورته الكنيسة فيما بعد بطقوس التعميد الغامضة.

4 - وأخيراً إذا قلت: إن عيسى المسيح لم يكن المقصود بنبوءة ملاخي، فإنني أطرح مناقشة بدهية؛ لأن أحداً لن يناقض كلامي، فقد آمنت الكنائس دوماً أن (رسول الطريق) هو يحيى المعمدان وليس عيسى، غير أن اليهود لا يقبلون أياً من الاثنين، ولكن بما أن النبوءة تحدثت عن شخص واحد وليس شخصين فإنني أقول: إنَّ عيسى لم يكن ذلك الشخص، ويستحيل أن يكُونه؛ لأنه لو كان عيسى إلهاً كما يدَّعون لما أمكن استخدامه لتمهيد الطريق أمامه (يهوه سَبَئوث) أي: إله الجموع! ولو كان عيسى هو نفسه (يهوه سَبَئوث) الذي قال هذه النبوءة فمن هو (يهوه سَبَئوث) الآخر الذي ستُهيأ الطريق أمام وجهه؟ أما إذا كان عيسى بشراً من لحم ودم وعبداً لإله الجموع (يهوه سَبَئوث) فعندئذ لا يمكن أن يكون عيسى مؤسس الكنائس التثليثية التي جعلته إلهاً. وسواء نظرنا إلى الدين المسيحي من

وجهة النظر الأرثوذكسية أو الكاثوليكية أو البروتستانتية أو المخلصية أو الكويكر أو أيٍّ من الملل والنحل العديدة فإنه لا يمكن لأي منها أن تكون (الطريق) أو (الدين) الذي أشار إليه ملاخي، كما أن عيسى لا يمكن أن يكون ممهداً أو مؤسساً لأي منها. وما داموا ينكرون الوحدانية المطلقة لله فهم خاطئون، ولا يمكن لعيسى أن يكون صديقاً لهم أو قادراً على مساعدتهم.

5 - إن الشخص المشار إليه في النبوءة، حسبما ورد في (ملاخي 1/3)، ذو صفات ثلاثة، فهو (رسول الله، والسيد الآمر، ورسول العهد)، كما أنه مميز بشروط ثلاثة وهي: (أنه يأتي فجأة إلى مسجده، ويبحث عن الناس ويسعون إليه، كما أنه موضع محبة شديدة منهم).

فمن يمكن أن يكون هذا الرسول العظيم الذي تنطبق عليه كل هذه الصفات سوى رسول الإسلام محمد عليه صلوات الله وسلامه. لقد أسري به فجأة من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى، وبعث إلى العالم بالقرآن المعجزة، وبدين الإسلام الذي هو أكثر الأديان عقلانية وبساطة ونفعاً للبشر، وكان وسيلة لهداية الملايين الذين دخلوا في أخوة عالمية تكونت منها (مملكة الله) الفعلية في أرضه على الشكل الذي نادى بِهِ كل من عيسى ويحيى.

الفصل التاسع

الأنبياء الحقيقيون يبشرون بالإسلام فقط

لم يعرف التاريخ شعباً كشعب بني إسرائيل ابتلي خلال حقبة تقل عن أربعمائة عام بعدد كبير من مدَّعي النبوة، ناهيك عن الأعداد الكبيرة من المشعوذين والعرّافين والسحرة، وكان أدعياء النبوة على نوعين: النوع الأول من المنتسبين لشريعة (يهوه)، وادعوا النبوة باسمه.

والنوع الثاني ممن ادعوا النبوة باسم بعل أو إله وثني آخر، وكان ذلك يتم بحماية بعض من ملوك إسرائيل الوثنيين.

وكان من النوع الأول من عاصر الأنبياء الحقيقيين من أمثال (ميخا) و(إرميا)، ومن النوع الثاني من سبب المتاعب لإيليا، وسبب مذابح الأنبياء والمؤمنين كما حدث خلال حكم آحاب ملك إسرائيل (وزوجه جيزابيل) (896-874 ق.م). وكان أخطرهم على الدين الحق أدعياء النبوة من النوع الأول؛ لأنهم كانوا يتظاهرون أنهم يتلقون الوحي من الله، ويقيمون المراسم الدينية في المعابد

والمصفايات، ولم يلقَ نبي من الاضطهاد والمشاق على أيديهم مثلما لقي النبي إرميا منهم.

بدأ إرميا رسالة النبوة في شبابه في الربع الأخير من القرن السادس ق.م عندما كانت مملكة يهوذا مهددة بغزو الكلدان، وكان اليهود وقتئذ متحالفين مع فرعون مصر، ولكن الكلدان بقيادة نبوخذ نصر هزموا فرعون مما جعل سقوط القدس أمراً محتوماً، وخلال تلك الأيام العصيبة كان إرميا يحث اليهود وزعماءهم على الخضوع لملك بابل نبوخذ نصر على أمل إنقاذ القدس من الدمار وإنقاذ اليهود من الأسر والنفي، وكان يوجه مواعظه البليغة للملك والكهنة وكبار القوم دون جدوى حتى سقطت القدس (586 ق.م) وكانت النتيجة أن نفى نبوخذ نصر إلى بابل كثيراً من الأسرى بمن فيهم الملك والأمراء، كما استولى على كنوز الهيكل، ثم صار يعين على القدس أمراء من اليهود واحداً بعد آخر، ويجعلهم ملوكاً تابعين له، وكثيراً ما كان هؤلاء يثورون ضده وإرميا يحضهم على البقاء موالين للكلدان، لكن أدعياء النبوة كانوا يخطبون في الهيكل قائلين: (هكذا يقول رب الجموع، انظروا، لقد حُطم نير ملك بابل، وخلال عامين سيعود جميع الأسرى وكنوز بيت الله إلى القدس).

وهنا وضع إرميا نيراً خشبياً حول عنقه، وأخبر الناس أن الله سوف يضع نير ملك بابل حول رقبة اليهود، ولكن حنانيا وهو أحد خصومه من أدعياء النبوة المنافقين للملك لطمه، وألقى به في

سرداب مليء بالوحل حيث كان طعامه اليومي رغيفاً جافاً من خبز الشعير، وكان أن عاد الكلدانيون لحصار القدس حتى سيطرت عليه المجاعة، ومات مدعي النبوة حنانيا كما تنبأ بذلك إرميا (إرميا 28)، وعندما سقطت المدينة نُهبت، وأضرمت فيها النار، ووقع الملك المتمرد سدقيا وحاشيته في الأسر، وأُخذ مع الكثير من الأهالي أسرى إلى بلاد بابل، ولم يُترك في القدس سوى الفقراء، وكان إرميا من جملة الذين سمح لهم بالبقاء، وتم تعيين جداليا حاكماً على القدس من قبل نبوخذ نصَّر، ولكن اليهود الباقين ثاروا عليه وقتلوه، وهربوا إلى مصر حاملين معهم إرميا، وحتى في مصر كان إرميا يتنبأ ضد الهاربين ويبدو أن حياته انتهت في مصر.

إن سفر إرميا – كما نعرفه الآن – يختلف كثيراً عما هو موجود في الطبعة السبعينية للعهد القديم، ويبدو أن النسخة اليونانية التي اعتمد عليها مترجمو الإسكندر الكبير كانت ذات ترتيب مختلف.

يعدّ نُقاد التوراة (والكاتب من رأيهم) أن إرميا كان المؤلف (أو على الأقل الجامع) للكتاب الخامس من الأسفار الخمسة في العهد القديم المسمى سفر التثنية Deuteronomy.

ولذا فإن هذا السفر يشتمل على كثيرٍ من تعاليمه مما لا نجده في باقي أسفار العهد القديم.

ولكنني في هذا الفصل سأتناول إحدى تعاليم إرميا الواردة في السفر المنسوب إليه مما أعده من النصوص المهمة جداً في العهد القديم.

إن الوضع المهم الذي طرقه إرميا هو: كيف نميز النبي الحقيقي من النبي المزيّف؟ وقد زوّدنا بجواب شافٍ عن علامة النبي الحقيقي، وهو: ***(إنه النبي الذي يبشر بالإسلام)*** (سفر إرميا 9/28).

كما إن سفر التثنية (13/1- 5، 18/20-22) يذكر بعض التعليمات بخصوص الأدعياء الذين يدّعون النبوة بشكل يخفى على كثيرٍ من الناس، ويحدد السفر أن أفضل طريقة للتعرف على أضاليل الكذاب انتظار تحقق نبوءاته ثم قتله بعد أن يعرف كذبه. ومع ذلك فإن الجهلة يعجزون عن التمييز بين النبي الحقيقي وبين مدعي النبوة كعجزهم هذه الأيام عن معرفة أي من الاثنين: الكاهن الكاثوليكي، أو الكاهن الكَلفني هو التابع الحقيقي لعيسى المسيح، وأحياناً يتنبأ الدعيّ بأحداث، ويفعل الخوارق، ويقوم بأشياء مشابهة ـ من حيث المظهر على الأقل ـ لتلك التي يقوم بها النبي الحقيقي، وما كان التنافس بين النبي موسى وسحرة فرعون إلا من هذا القبيل، ولذا يحدد إرميا طريقة لاختبار أصالة أي نبي وهي طريقة الإسلام، والرجاء من القارئ أن يقرأ الفصل التاسع من سفر إرميا بأكمله ثم يمعن التفكير في النص الآتي منه:

(إن النبي الذي يتنبأ عن الإسلام (الشالوم) يُعرف أن الله قد أرسله حقاً فورتكلمه بذلك) (إرميا 9/28)، والترجمة حرفية جداً؛ ذلك أن كلمة (يتنبأ) تعني حرفياً التنبؤ بأحداث غيبية، وأن كلمة (نبي) تعني حرفياً الشخص الذي يتنبأ بالمستقبل أو يعرف عن

طريق الوحي أحداثاً مضت، غير أن التعريف الصحيح لكلمة نبي هو (الشخص الذي يتلقى الوحي من الله ويبلغه للبشر)، ومن الواضح أنه ليس من الضروري أن تكون الرسالة تنبؤاً بالغيب أو معرفة أحداث ماضية، وبالتالي فإن فعل (يتنبأ) يعني تلقي الوحي من الله وتبليغه للناس. وفي القرآن الكريم يأمر الله رسوله محمداً أن يقول: ﴿إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ﴾ (سورة الكهف: الآية 110)، وعليه فلا ينبغي أن ننسب لأي من الأنبياء صفة المعرفة والإحاطة بكل المعارف الدنيوية؛ لأنَّ معارف الأنبياء الدنيوية قد تتضمن بعض الأخطاء؛ فالله تعالى لم يبعث الأنبياء ليعلموا الناس الفيزياء أو الرياضيات أو العلوم، ولذا يجب أن لا نلوم أي نبي على خطأ معرفي دنيوي؛ لأنه مجرد بشر، ولكنه النبي يكون موضع اختبار فقط عندما يبلّغ الوحي السماوي الذي يُنزل عليه.

والآن نعود إلى قول إرميا: إنه لا يمكن أن يكون النبي صادقاً إلا إذا بشّر بدين الإسلام، ومن أجل فهم أفضل لذلك نقرأ كلامه الذي سبق تلك العبارة حيث يقول إرميا لخصمه حنانيا: ***(إن الأنبياء الذين جاؤوا قبلي وقبلك منذ القدم تنبأوا لكثير من البلدان والممالك العظيمة بالحروب والشرور والوباء)*** (إرميا 8/28)، ثم يقول: ***(إن النبي الذي يتنبأ عن الإسلام (الشالوم) يُعرف أنه مُرسل من الله حقاً فور تكلمه بذلك)*** (إرميا 9/28).

وقد يعترض بعضهم على ترجمة كلمة (الشالوم) التي ترجمتها (عن الإسلام) باعتبار أن حرفي (ال) قبل (شالوم) بمعنى (عن) أو (فيما يتعلق بـ).

لكن الحقيقة المسلّم بها أن كلمة (شالوم) في العبرية و(شلاما) في السريانية و(سلام) و(إسلام) في العربية كلها من الجذر السامي (شَلَم) نفسه، وتحمل المعنى نفسه، وهذا أمر معروف لدى جميع علماء اللغات السامية، وفعل (شَلَم) يدل على القبول أو الاستسلام وتحقق السلام، حتى يكون المرء سالماً هادئاً مع نفسه ومع الآخرين. ولا يوجد أي نظام ديني في العالم يحمل اسماً أو وصفاً أفضل وأشمل وأكثر هيبة وسمواً من الإسلام، فدين الله الحق لا يمكن أن يسمّى باسم أي من العباد أو البلاد، ***إن هذه القداسة والعصمة لكلمة «إسلام» هي التي توقع الرعب والخوف والهيبة في قلوب أعدائه حتى عندما يكون المسلمون ضعافاً خانعين***[1]، إنه اسم الدين الذي يأمر بالخضوع والاستسلام المطلق لله تعالى، مما يعطي السلام والهدوء الداخليين للمسلم مهما كانت الاضطرابات والمصائب العابرة التي تهدده، إنه الإيمان الجازم

(1) من المهم أن نلاحظ كيف أن تعليقات المؤلف تتطابق مع ملاحظات قيصر ألمانيا السابق الذي خطب عند الاحتفال بعيد ميلاده في مدينة (دورن) في هولندا قائلاً: (اعلموا أن المسلمين إذا عدّوا أمر الله هو الزحف على الغرب المتداعي وإخضاعه لمشيئته، فإنهم سوف يزحفون كموجة مد هائلة يعجز أمامها حتى أعتى البلاشفة وأشدهم رغبة في القتال). جريد الأيفننج ستاندارد في 1929/1/26 لندن.

بوحدانية الله وبرحمته وعدالته مما يميز المسلم من غيره، ولذا فإن ما يهاجمه المنصّرون ويحاولون التغلب عليه دون جدوى هو تعلق المسلم بتعاليم القرآن والسنة النبوية.

إن فحوى كلمات إرميا أن النبي الذي يعظ ويتكلم عن الإسلام كدين وطريقة حياة يُعرف فوراً أنه مرسل من الله، ولمزيد من الشرح عن ذلك لنلاحظ النقاط الآتية:

1 - إن إرميا هو النبي الوحيد قبل المسيح الذي استخدم كلمة (شالوم) بمعنى الدين، وهو النبي الوحيد الذي استخدم هذه الكلمة بهدف إثبات صدق النبي الحقيقي، وحسب النص القرآني فإن إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب وموسى وعيسى وجميع الأنبياء كانوا مسلمين، وإن كلمة الإسلام ومرادفاتها (شالوم وشلاما) كانت معروفة لليهود والنصارى في الجزيرة العربية عندما ظهر محمد لإكمال ونشر دين الإسلام بين الناس كافة، ولو كان المقصود بالنبوءة النبي الذي يتنبأ بحدوث السلام (عكس الحرب) لكان هذا مجرد شرط مؤقت لا يمكن أن يؤيد أن النبي مرسل حقاً من الله، والواقع أن نقطة الخلاف الحساسة التي اختصم فيها إرميا وحنانيا (إرميا 28) لا يمكن البتّ بها بإثباتٍ أو إنكار وقوع كارثة وشيكة، ولو كان تنبؤ إرميا (بالسلام) عندما كان طيلة الوقت يتنبأ بالكارثة القومية العظيمة ـ سواء باستسلام الملك سدقيا

أو بمقاومته للحكم الكلداني ـ فإنَّ ذلك كان سيعني تناقضاً صارخاً في منطقه؛ لأنَّ سلامه المزعوم في كلتا الحالتين لن يكون سلاماً حقيقياً، بل على العكس؛ فلو قاوم اليهود الجيش الكلداني لتسبب ذلك بالدمار الكامل لهم، ولو استسلموا لوقعوا تحت عبودية غير مشروطة، لذلك من الواضح أن إرميا استخدم كلمة شالوم بمعنى نظام ملموس حقيقي يجسده الإسلام.

لقد حمل إرميا في قلبه دعوة الله ودينه دين السلام، ومن أجل المصالح الحيوية لدين السلام أو الإسلام فقد نصح الملك ورجال حاشيته بالولاء للكلدان؛ لأنه ليس من سبيل آخر مفتوح أمامهم، لقد هجروا رب أجدادهم ودنسوا هيكله وسخروا من أنبيائه وارتكبوا الخطايا والخيانة (2 سفر الأيام 36... وغيره)، ومن سنة الله في خلقه في مثل هذه الأحوال أن يقعوا تحت طغيان عدوهم، وهذا ما أيقن به إرميا، وبالنسبة لنبي حقيقي مخلص مثل إرميا فإنه تجب التضحية عندئذ بالحكومة والأمة من أجل الدين، وليس العكس، لاسيما بعد أن تخلت كل من الحكومة والأمة عن الله، أما حنانيا فقد كان يحاول إرضاء سيده الملك والتملّق له بإسماعه ما يحب أن يسمع، فكان دوماً يتنبأ بالنصر وعودة الأسرى من بابل واسترجاع كنوز الهيكل خلال عامين من الزمن فقط، ولا شك في أن القارئ يستطيع اعتماداً على ما سبق أن يحكم بنفسه أي النبيين

المذكورين إرميا أو حنانيا كان النبي الحقيقي الذي تهمه مصلحة الدين والأمّة؟ إنه إرميا بكل تأكيد.

2 - إن دين السلام (الإسلام) وحده القادر على تحديد خصائص النبي الحقيقي، إن الله واحد، ودينه واحد، ولا يوجد دين آخر في العالم سوى الإسلام يتبنى ويعلم الوحدانية المطلقة لله، لذلك فإن من يضحي بكل مصلحة أخرى من أجل قضية هذا الدين يكون هو النبي الحق، وبالمقابل فإنه إذا لم يكن دين الإسلام معياراً ومقياساً نقيس به صدق النبي فإنه ليس هناك مقياس آخر يفي بذلك الغرض، إن عمل المعجزات ليس وحده بالبرهان الكافي؛ لأن المشعوذين أيضاً يفعلون العجائب، كما أن تحقق النبوءة عن المستقبل ليس برهاناً كافياً بذاته؛ فكما أن الروح القدس قد يكشف أحداث المستقبل للنبي الصادق فإن الروح الشريرة أيضاً قد تكشف ذلك الدجال، ومن هنا يتضح (أن النبي الذي يتنبأ عن الإسلام ـ باعتباره اسماً للعقيدة ومنهجاً للحياة ـ سيعرف بأنه نبي حقيقي فور تلقيه الرسالة من الله وفور تكلمه بها)، تلك كانت الحجة التي اعتمد عليها إرميا والتي حاول عن طريقها إقناع سامعيه بكذب حنانيا، ولكن الملك الشرير والحاشية من حوله كانوا يفضلون سماع الكلام المعسول الذي يؤيد ضلالهم بدلاً من الاستماع للحقيقة وقبولها.

3 - لاحظنا في الفقرة السابقة أنه لا تحقق النبوءة عن المستقبل ولا القيام بعجائب يعتبر كافياً لإثبات صدق أي نبي، وأن (شالوم) استخدمت للتعبير عن دين السلام؛ ذلك أن (شالوم) ليس إلا (الإسلام)، ونحن نطالب أولئك الذين يعارضون هذا التفسير بأن يأتوا بكلمة عربية إضافة إلى الإسلام والسلام تقابل كلمة شالوم، وأن يجدوا كلمة أخرى في العبرية إضافة إلى (شالوم) تعني الإسلام، ولما كان ذلك مستحيلاً فنحن مضطرون للتسليم بأن شالوم هي السلام بالمعنى المجرد، وهي الإسلام والعقيدة بالمعنى الملموس.

4 - يذكر القرآن في سورة البقرة بوضوح أن إبراهيم وأبناءه وأحفاده كانوا مسلمين، وأنهم لم يكونوا يهوداً أو نصارى، وأنهم بشروا بعبادة الله الواحد إله جميع البشر، ولذلك فإن اليهود والأمم الأخرى التي انحدرت من نسل إبراهيم والقبائل العديدة التي اعتنقت دينهم كانوا جميعاً مسلمين، أي: مؤمنين بالله ومستسلمين لمشيئته. كان هناك قوم عيص والأدوميون Edomites والمديانيون Medianites والكثير غيرهم ممن عاشوا في بلاد العرب، وعرفوا الله وعبدوه، وكان لهم أنبياء مثل أيوب Jacob وجيثرو Jethro (حمي النبي موسى) وبلعام وهود وغيرهم كثير، ولكن هذه الأقوام ارتدت إلى الوثنية كاليهود إلى أن بُعث أمير الأنبياء محمد ﷺ.

لقد أنتج اليهود بعد عودتهم من الأسر البابلي في حوالي القرن الخامس قبل الميلاد معظم كتبهم المقدسة المعترف بها ضمن العهد القديم بعد أن كانت ذكريات فتح أرض كنعان على يد يوشع (1130 ق.م) وذكريات هيكل سليمان (935 ق.م) والقدس قد عفا عليها الزمن، وقد سيطرت على من تبقى من بني إسرائيل روح قومية عنصرية، وانتشر بينهم الاعتقاد بقدوم المخلّص العظيم المفترض أن يعيد عرش داود، مع أنهم نسوا المعنى القديم لشالوم الذي يعني دين إبراهيم ودين الشعوب التي انحدرت من نسله.

ومن وجهة النظر هذه فإنني أعدّ هذه العبارة التي قالها إرميا واحدة من النصوص الذهبية في العهد القديم.

الفصل العاشر

الإسلام مملكة الله في أرضه

عندما درسنا رؤيا دانيال الرائعة (سفر دانيال، الفصل السابع) رأينا كيف رافقت الحشود السماوية النبي محمداً وهو في طريقه إلى الحضرة الربانية المجيدة حيث حظي بالتكريم الذي لم يحظ به مخلوق (رسالة بولس الثانية إلى أهل كورنثوس، الفصل 12) وتُوِّج سلطاناً على الأنبياء، وخوّل السلطة لتدمير الوحش الرابع والقرن الكافر، كذلك رأينا كيف منحت له السلطة لإقامة مملكة الله على الأرض، ولا عجب؛ فإنه من بين كل الأنبياء والرسل يبرز محمد وحده عملاقاً فوقهم جميعاً بسبب العمل العظيم الذي أنجزه، وليس بوسع الإنسان أن يقدر قيمة الإسلام وأهميته في مناهضة الوثنية والشرك ما لم يسلم بوحدانية الله المطلقة، ويدرك أن الله هو الإله الذي عرفه آدم وإبراهيم وموسى وعيسى، وعندئذ يتقبل الإسلام على أنه الدين الصحيح الوحيد، ويعترفُ بمحمد على أنه أمير الأنبياء والرسل.

ومن العبث تصور الله تعالى (كأب) حيناً و(كابن) حيناً آخر و(كروح قدس) تارة أخرى، أو تصوره ثلاثة أشخاص معاً يخاطب

بعضهم بعضاً بضمائر أنا أنت هو، إن ذلك من شأنه ضياع كل مفهوم حقيقي للكائن المطلق، كما أننا لا نضيف شيئاً لقدسية الدين بافتعال بعض الطقوس والأسرار، بل على العكس فإن ذلك يشوه الدين الصحيح وينتهي بالكفر.

كما أننا لا نرفع من قدر محمد إذا تصورناهُ إلهاً أو ابن إله؛ لأننا بذلك نفقد نبي مكة الحقيقي ونسقط في هوة الشرك، إن عظمة محمد تأتي من كونه أقام الدين البسيط الصحيح بممارسة مبادئه وتعاليمه بصورة عملية، مما أكسب المسلم قناعة بدينه ومنعةً من قبول أي عقيدة أخرى سوى عقيدة (لا إله إلا الله، محمد رسول الله) وهي عقيدة كل مؤمن حقيقي حتى يوم الدين.

إن الرسول العظيم الذي دمر القرن الحادي عشر (قسطنطين وكنيسة التثليث) لم يكن (ابن الله) ولكن (ابن الإنسان) محمد المصطفى الذي أقام فعلاً مملكة الله على الأرض، ونحن نعلم أنه عند مثول سيد الأنبياء بين يدي الله صدر الوعد الإلهي الآتي: (إن المملكة والسلطان تحت كل السماء سوف تعطى لعباد الله تعالى وأوليائه، وسيكون الملكوت أبدياً يخدمه ويطيعه الجميع) (دانيال 22/7، 27).

وقد دلت هذه النبوءة بوضوح على أن الدين الإسلامي الذي اكتملت رسالته بخاتم الأنبياء ليس مجرد دين منفصل عن الدولة، وإنما هو دين ودولة معاً؛ لأنه مملكة الله في أرضه، ولنقارن ذلك

مع ما كان عليه الإسلام قبل أن تكتمل أسسه بصورة نهائية على يد رسول الله محمدٍ!

1 - لقد كان الإسلام منذ الأزل دين الله الحقيقي، ولكنه بعد محمد أصبح مملكة الله على الأرض:

إن الذين يعتقدون أن دين الله الحق اقتصر على ما أوحي به إلى إبراهيم فقط وأن بني إسرائيل وحدهم حفظوه لا بد من أن يكونوا جهلة بالعهد القديم، ذلك أن أيوب وبلعام وعاد وهود ولقمان وكثيرين غيرهم من الأنبياء لم يكونوا يهوداً، وإن مختلف القبائل والشعوب كبني إسماعيل والمؤابيين والعمونيين والأدوميين وغيرهم ممن انحدروا من سلالة إبراهيم ولوط عرفوا الله تعالى على الرغم من أنهم كاليهود ارتكسوا بعد ذلك إلى الوثنية والجهل، غير أن نور الإسلام لم ينطفئ أبداً، ولم يُفسح مكانه للوثنية.

لقد عبد اليهود وذوو قرباهم من الشعوب الأخرى الأوثان والأصنام وآلهة المنازل التي كانت تدعى بالعبرية (ترافيم) (سفر التكوين 31) وهي في رأيي المتواضع من طبيعة التماثيل والأصنام التي يقتنيها ويعبدها النصارى الكاثوليك والأرثوذكس في بيوتهم ومعابدهم، كانت الأصنام نفسها في تلك الأيام الجاهلية تمثل نوعاً من بطاقات الهوية أو جوازات السفر؛ حتى إن لابان (والد راحيل وهي زوج يعقوب) كان يقتني الأوثان، وكانت راحيل تسرق أوثان

والدها حسبما يذكر سفر التكوين (التكوين 9/31) مع أن لابان ويعقوب كانا مسلمين أقاما (مصفا) مكرسة لعبادة الله.

لقد حفلت هجرة اليهود من مصر إلى فلسطين بالعجائب والخوارق التي كانت تحدث ليل نهار، وكان معسكرهم مظللاً بغيمة في أثناء النهار ومضاءً بعمود من النار ليلاً، وكانوا يأكلون المن والسلوى مما يتنزل عليهم، ومع ذلك سرعان ما صنعوا عجلاً من الذهب وعبدوه عندما غاب موسى عنهم أربعين يوماً في جبل الطور بسيناء، وقد حفل تاريخ هذا الشعب المعانِد منذ موت يوشع حتى تتويج طالوت (شاؤول Saul) ملكاً بسلسلة من الانتكاسات المخزية نحو الوثنية، ولم يكفّ اليهود عن عبادة الإصنام إلا بعد انتهاء الوحي واكتمال شريعتهم في القرن الثالث قبل الميلاد، وبعد ذلك فقط بقوا على التوحيد غير أنهم لم يستحقوا صفة مسلمين؛ لأنهم رفضوا بعناد بعثة كل من عيسى ومحمد عليهما السلام، ولا يستطيع المرء أن يصبح مسلماً إلا إذا استسلم لله وآمن بأنبيائه ورسله كافة، وإلا فإن الإيمان مع العصيان يشبه إيمان الشياطين الذين يؤمنون بوجود الله لكنهم مزعزعون.

لقد وُجد دين الإسلام عند شعب إسرائيل وعند الشعوب العربية القديمة، وكان يذبل أحياناً ويتألق حيناً آخر كالفتيلة التي ترتجف أو الشرارة الخافتة تلمع في غرفة مظلمة، فبعد أن آمنت به بعض الأقوام ارتكستْ إلى الوثنية، ولكن بقي من الأفراد

والجماعات في كل زمان ومكان من آمن بالله الإيمان الصحيح، وعَبَدَه العبادة الصحيحة.

ومن الواضح أنه لم يكن لدى جمهور اليهود فكرة عن الله والدين كما هي فكرة المسلمين؛ إذ كان اليهود يعترفون بـ(يهوه) ويعبدونه أيام الرخاء، أما أيام البؤس فكانوا يتخلون عنه ويتبعون إله أمة أقوى وأكثر ازدهاراً، ويعبدون أصنامها وأوثانها، ويتضح من دراسة الكتب الدينية العبرية أن اليهودي العادي يعدّ إلهه أقوى من آلهة بقية الأمم أحياناً وأضعف أحياناً أخرى، وإن ارتكاس اليهود المتكرر إلى الوثنية يدل على أن فكرتهم عن الإله (إيل) أو (يهوه) تشبه فكرة الآشوريين عن إلههم (آشور)، والبابليون عن (مردوخ)، والفينيقيين عن (بعل)، وباستثناء الأنبياء والمتصوفين منهم فإن مسلمي التوراة ـ يهود الشريعة الموسوية ـ لم يسموا إلى مستوى الإسلام، ولم يصلوا إلى فهم حقيقي له، ولم يتأصل في نفوسهم إيمان جازم بالله ولا بالحياة الآخرة. ما أكبر التباين إذن بين مسلمي القرآن المؤمنين بالشريعة (المحمدية)[1] وبين مسلمي التوراة المؤمنين بشريعة موسى، لقد ظل الدين غير ناضج وغير متكامل في عقلية اليهود على الرغم من أنه سطع أيام خُدّام (يهوه) الصادقين، ونلاحظ أنه خلال عهود بعض القضاة المتدينين وبعض الملوك الثقات من بني إسرائيل كانت الدولة والدين يزدهران تحت

(1) إن كلمة (المحمدية) هنا لتمييزها عن الشريعة الموسوية، وكلتاهما من عند الله تعالى. (المؤلف).

أحكام الشريعة، لكن دين الله لم يتخذ شكل مملكة الله في الأرض إلا في ظل النظام القرآني، فقد قضى الله بحكمته غير المحدودة أن دول الظلام الأربعة الكبرى يجب أن تتعاقب بعضها وراء بعض قبل تأسيس مملكة الله الحقيقية، فظهرت وازدهرت الحضارات والإمبراطوريات العظيمة للآشور والكلدان والفرس واليونان والرومان التي كانت أمجادها مبنية على عبادة الشيطان، فاضطهدت المؤمنين، ونشرت جميع الشرور والآثام التي يمكن أن يبتدعها الشيطان قبل أن تتحقق مملكة الله في الأرض.

2 - عيسى وتلاميذه بشروا بملكوت الله:

لا شك في أن عيسى المسيح وتلاميذه كانوا من الرواد المبشرين بمملكة الله على الأرض، ذلك أن خلاصة إنجيل عيسى تركزت في العبارة الشهيرة من صلاته (ليأتِ ملكوتك)، ولمدة عشرين قرناً مازال النصارى من جميع الملل والنحل يصلون ويرددون هذا النداء (ليأتِ ملكوتك)، والله وحده يعلم كم سيستمرون في هذا النداء وينتظرون قدوم الملكوت عبثاً، إن هذا التوقع المسيحي لمجيء مملكة الله، التي جاءت ولم يفطنوا إليها أو لم يعترفوا بها يشابه توقع اليهود لظهور المسيح الذي جاء ولم يعرفوه، ومن العجب أنهم يتمسكون بهذا الأمل العقيم. إذا سألت قسيساً نصرانياً عن ذلك فإنه سوف ينمق الأقوال العديمة المعنى، ويؤكد أن مملكة الله تتحقق بتغلب الكنيسة على بقية الكنائس الملحدة.

وسيحدثك قسيس آخر عن الحقبة الألفية السعيدة أي: حقبة الألف عام المثالية المفترض أن تلي عودة المسيح المنتظر، أما الذي يتبع الكنيسة المخلصة أو الكويكرية فقد يقول لك: إن كنيسة الله سوف تتألف من النصارى الحديثي المولد والأبرياء من الخطايا الذين غسلهم ونظفهم دم الحَمَلِ وما إلى ذلك!!

إن مملكة الله لا يمكن أن تكون كنيسة كاثوليكية منتصرة على بقية الكنائس، ولا دولة مطهرة معصومة من الخطأ، كما أنها ليست مملكة خيالية (للحقبة الألفية السعيدة) ولا مملكة مؤلفة من كائنات سماوية تشتمل على أرواح الأنبياء والمؤمنين يحكمهم حمل مقدس، شرطتها وقُضاؤها من الملائكة وزعماؤها من الباباوات والبطاركة والأساقفة والوعَّاظ.

إن مملكة الله على الأرض هي دين واقعي قوي يؤمن مجتمعه بالله، وهو مسلح بالإيمان وبالسيف للقتال من أجل وجوده ضد مملكة الظلام وضد الذين لا يؤمنون بوحدانية الله، ضد الذين يؤمنون بأن له ولداً أو أباً أو أماً أو شركاء.

إن كلمة Evangelion اليونانية التي أصبحت Gospel بالإنكليزية (إنجيل بالعربية) تعني (البشارة السارة) والبشارة هي الإعلان عن مملكة الله القادمة التي سيكون أصغر مواطنيها أعظم من يحيى المعمدان، يحيى الذي قام والمرسلون من بعده بوعظ اليهود وتبشيرهم بمملكة الله طالبين إليهم أن يؤمنوا ويتوبوا لكي

يدخلوها، إن عيسى عليه السلام لم يُبْطل شريعة موسى، ولم يغيرها، بل فسرها بمعنى روحي، وقد رحل عنا وهي غير نافذة، وعندما أعلن أن الكراهية أساس القتل وأن الشهوة أصل الزنا وأن الجشع والنفاق من الآثام البغيضة كعبادة الأوثان، وأن الرحمة والإحسان أفضل من تقديم القرابين ومن المراعاة الشديدة ليوم السبت، فإنه عملياً ألغى المعنى الحرفي لشريعة موسى من أجل معناها الروحي.

إن الأناجيل الحالية المحرفة المشكوك في صحتها تتضمن كثيراً من حِكَم المسيح وإشاراته إلى مملكة الله وإلى (ابن الإنسان)، ولكنها مشوهة ومحرفة لدرجة أنها نجحت في تضليل النصارى بحيث جعلتهم يعتقدون أن عيسى لم يقصد بمملكة الله سوى الكنيسة، وأنه هو نفسه (ابن الإنسان).

وسوف نبحث هذه النقاط المهمة بالتفصيل في الفصول الآتية وأكتفي الآن بالقول إنَّ الملكوت الذي بشّر به عيسى كان الإسلام؛ لأن الإسلامَ هو مملكة الله؛ لأنَّ محمداً كان (ابن الإنسان) الذي بُعث للقضاء على الوحش وتأسيس دولة قوية تقوم على الجماعة المؤمنة بالله الواحد المؤلفة من أولياء الله وعباده الصالحين (دانيال 7/22،27).

لقد كان دين الله محصوراً في بني إسرائيل بشكل رئيس حتى مجيء عيسى عليه السلام، وكان متسماً لدى اليهود بالمادية

والقومية، وقد شوه المشرّعون والكتّاب والأحبار هذا الدين بأن نسبوا إليه كتابات أسطورية من تأليفهم وتأليف أجدادهم، وقد ندد المسيح بذلك وباليهود وبزعمائهم ووصفهم بأنهم (منافقون) و(أبناء الشيطان).

لقد أصلح عيسى المسيحُ الدينَ القديمَ وأعطاه حياة وروحاً جديدين، وشرح بمزيد من الوضوح خلودَ الروح البشرية والقيامة والحياة في الآخرة، وأعلن على الملأ أن المخلّص المنتظر الذي يتوقعه اليهود لن يكون يهودياً ولا من سلالة داود، بل من سلالة إسماعيل، واسمه أحمد، وأنه سوف يقيم مملكة الله في الأرض بسلطة دين الله وقوة السيف. وهكذا أمدّ عيسى المسيحُ دينَ الإسلام بنور وروح جديدين، وكان يحث أتباعه على التواضع والتسامح والصبر، وأخبرهم سلفاً عن الاضطهادات والاضطرابات والقتل والسجون التي سيتعرضون لها، وبالفعل لقي النصارى الأوائل اضطهادات مروعة تحت حكم أباطرة الرومان، ثم جاء قسطنطين الكبير، وعقد مجمع نيقية عام 325م، وأعلن مبدأ التثليث، وأعطى الحرية للكنيسة المنحرفة، وكان أن تعرض المسلمون الموحّدون[1] إلى مزيد من الاضطهاد على يد أنصار التثليث بصورة أشد من ذي قبل حتى جاء محمد عليه الصلاة والسلام.

(1) لم يفوض عيسى أتباعه بأن يسمّوا أنفسهم مسيحيين، ولا يوجد لقب أفضل للموحدين الأوائل من لقب (مسلمين). (المؤلف).

3 - طبيعة وتكوين ملكوت الله:

هنالك نداء إسلامي ينادى كل يوم خمس مرات من مآذن المساجد في كل أنحاء العالم، تُقام الصلاة بعده، وهذا النداء هو (الأذان)، وبالإضافة لذلك فإن المسلم يبدأ كل عمل مهما كان بسيطاً بعبارة (بسم الله) وينتهي بـ(الحمد لله) مما يعني الثناء على الله وحمده، ذلك أنّ رابطة الإيمان التي تصل المسلم بربه قوية وقريبة، قال تعالى: ﴿ **وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ** ﴾ (سورة ق: الآية 16) ولا يوجد أي فرد يحمل من المحبة والولاء والاحترام لسيده قدر ما يحمل المسلم لربه. إن الله ملك السماوات والأرض وملك الملوك وسيد السادة، وهو ملك كل مسلم بصورة خاصة؛ لأن المسلم وحده الذي يشكر ويحمد مليكه الله تعالى في مواجهة كل ما يحدث خيراً كانَ أم شراً.

ومن هذا يتضح أن الإسلام مكون في جوهره من مملكة دينية كاملة حقيقية على الأرض، وقد انتفت الحاجة بعده لمرسلين وأنبياء جُدد، كما كانت عليه الحال بالنسبة لإسرائيل والشعوب الأخرى؛ لأن مشيئته تعالى منزلة في القرآن الكريم بصورة كاملة.

ولنلاحظ النقاط الآتية فيما يتعلق بتكوين ودستور مملكة الله:

أ - يكوّن المسلمون بجملتهم أمة واحدة وأسرة واحدة، وإن آيات القرآن الكريم والحديث الشريف حول هذه النقاط كثيرة، ومن الخطأ أن نحكم على المجتمع الإسلامي كما يطرح نفسه الآن،

بل يجب النظر إليه كما كان في عصر النبي والخلفاء الراشدين بعده.

إن اسم (مسلم) يعني حرفياً (صنع السلام) فيفترض لذلك أن يكون المسلم هادئاً مسالماً كريماً، وهو في الوقت نفسه خصم عنيد لمن يعتدي على دينه ومقدساته وشرفه وأملاكه، إن الجهاد في الإسلام ليس حرباً عدوانية، ولكنه حرب دفاعية، والقرآن الكريم واضح تماماً؛ إذ يقول: ﴿وَلَا تَعْتَدُوا﴾ ولا يمنع من ذلك أن بعض المسلمين يفتقدون أخلاق الإسلام الحميدة والعمل بموجبها، والسببُ في ذلك افتقارهم إلى المعرفة الدينية الصحيحة والتدريب الديني السليم.

ب - حسب وصف النبي دانيال فإن مواطني مملكة الله هم (جماعة القديسين) أي: عباد الله الصالحون وأولياؤه، وفي النص الكلداني أو الآرامي الأصلي يوصفون بأنهم أمة القديسين، وهي صفة تليق فقط بأمير الأنبياء وصحابته وتابعيه من المهاجرين والأنصار الذين قضوا عل الوحش الروماني، واقتلعوا الوثنية من معظم قارتَيْ آسيا وأفريقيا.

إن المسلمين الذين يؤمنون بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وأن الخير والشر كليهما من الله ويؤدون فروضهم الدينية قدر المستطاع يعدون أولياء مكرمين ومواطنين مباركين في هذه المملكة، ولا حاجة عندهم للاعتقاد المصطنع بوجود كيان اسمه

الروح القدس يملأ قلوب الذين يتعمدون باسم آلهة ثلاثةٍ كل منهم ثالث الثلاثة.

فالمسلم لا يؤمن بوجود (روح قدسٍ) واحد متميز، ولكن بأرواح قدس لا حصر لها من مخلوقات الله المسخرة لطاعته، والمسلم لا يطهر بالتعميد أو الوضوء بل تزكو نفسه بالرغبة والمشاركة في الدفاع عن الدين والقتال من أجله. قال يحيى المعمدان: (إني أعمدكم بالماء من أجل التوبة، ولكن الذي يأتي بعدي أقوى مني، والذي لست جديراً بحمل حذائه، وسوف يعمدكم بالروح القدس والنار) (متّى 11/3) (وفي إنجيل برنابا ينسب هذا القول إلى عيسى عليه السلام) وهكذا بالروح القدس والنار طهّر محمد الوثنيين والبدو الرُّحَّلَ أنصافَ البرابرة، وحوّلهم إلى جيش من المؤمنين الذين حوّلوا بدورهم الكنيس المتداعي والكنيسة المهترئة إلى مملكة الله الدائمة في الأرض الموعودة وبقية أنحاء الدنيا.